هكذا يكون الإنسان

بقلم
أنيس الرفاعي

إهـــــــداء٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

هكذا
يكون الإنسان

بقلم

أنيس الرفاعي

أنيس الرفاعي: هكذا يكون الإنسان

الحضارة للنشر

٧ شارع أبو السعود – الدقي ١٢٣١١ – القاهرة

تليفون ٠١٢٣١٦٤٨٦٧ – فاكس ٣٧٦٠٥٨٩٨

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street,
Dokki 12311, Cairo, Egypt
Tel.: (20-12) 316 48 67 - Fax: (20-2) 3760 58 98
E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg

www.alhadara.com

الطبعة الأولى: سبتمبر ٢٠٠٨

رقم الإيداع بدار الكتب: ١٩٠٢٤ /٢٠٠٨

I.S.B.N. 977-5429-92-7

مقدمة

عِلَّةُ تواجد الإنسان علي الأرض هي أن يرتقي. ورقي الإنسان يقوم فيه عن طريق تطوره للأحسن والأفضل والأقوم في هذا الرقي. وهذا الرقي هو أن يحافظ الإنسان علي إنسانيته وأن يطورها بصورة دائمة للأحسن والأفضل والأقوم بالعلم عنها، ومحاولة تطبيق العلم بالقيام فيما علم.

وقد وهب الله الإنسان في وجوده أدوات يستخدمها الإنسان ليطور هذا الوجود الإنساني ويرتقي به. وأول هذه الأدوات هو العقل. العقل في مكنته أن يفهم ويتسع ليستوعب أكثر ويركز ويتأمل ليدرك. وإذا أدرك صار الفكر معرفة، وإذا صار الفكر معرفة أضيفت هذه المعرفة لوجود الإنسان، وأصبحت تشكل جزءاً من كيان الإنسان، ومكسبه أثناء وجوده على الأرض وبعد انتقاله.

والفهم والاتساع والتركيز والتأمل هو تفاعل عقل الإنسان مع أي أمر من أمور حياته والطبيعة والكون؛ ليستخرج ما ينفعه في مشوار رقيه. وإذا لم يستخدم عقله بهذه الصورة فقد العقل نوره وحيويته، ويتحول إلى تابع تستخدمه أداة أخرى من أدوات الإنسان المتواجدة في وجوده. فيكون مثلاً أداة تحت سيطرة النفس فيكون عقلاً نفسياً يقوم بتنفيذ رغبات النفس، أو أنه يُمْحَى في طاقات القلب - قلب غافل وعقل جاهل مظلم - فيصير الإنسان عاطفياً في كل قراراته واتجاهاته. وبهذا يفقد العقل وظيفته، وينحدر بالوجود الإنساني إلى أسفل .. إلى حياة الحيوان في الإنسان.

والنفس في الإنسان كأداة لها وظيفتها، إذا عرف الإنسان نفسه عرف طريقه للرقي لأعلى، ويستخدمها الاستخدام الأمثل، وتتحول لطاقة تدفع الإنسان وتعينه في طريق رقيه. والقلب هو المستودع الذي يحتفظ بسر وجوهر الإنسان. ولكن هذا السر مُنْقَبِر في القلب، ولا يظهر للوجود لينمو ويكبر إلا إذا اتجه الإنسان إليه، وتولاه بالرعاية والتقدير، ورواه بأنفاس عطرة من مصدر حيٍّ معلومٍ له.

وقد حرصت في الأبحاث الأربعة المقدمة في هذا الكتاب على تقديم نماذج إنسانية كرواد ومعلمين في هذا المجال، يمثلون هذا الرقي، ومدى تحقيقهم في وجودهم لهذه المعاني الإنسانية، ويقدمونه بحب لإخوانهم في البشرية.

وعلينا ألا نغفل ونحن نقرأ لهؤلاء الذين أناروا لنا الطريق إلى رقينا، إنهم حرصوا حرصاً شديداً على الاحتفاظ بحرية فكر كاملة دون خوف من أي إنسان، أو تردد بعد اقتناع، وعدم الخضوع لأي موروث عقائدي، أو أي عادات أو تقاليد.

إنهم يكتشفون بأنفسهم ولأنفسهم كل ما يتعلق بحياتهم مادية كانت أو معنوية، مستخدمين في طريقهم إلى رقيهم كل ما أودع الله فيهم من طاقات نفسية أو عقلية أو قلبية، متناغمين مع قانون الحق والحياة في داخلهم، وفي الكون من حولهم.
وعرضي لهذه المفاهيم الإنسانية هو أنني أكِنُّ كل حب ورغبة أكيدة لكل أبناء أمتنا الناطقين بالعربية صوب الرقي الذاتي لوجودهم.

وفي هذا الكتاب أقدم رؤية متواضعة، منزهة عن أي غرض، فهي نتيجة تفكري وتأملي في " هكذا يكون الإنسان " وليس لي هدف

في حياتي إلا أن أتقدم ولو خطوة واحدة في طريق الرقي .. طريق السادة الأحياء المستنيرين اللانهائي.

إهـــــداء

إلى روح الحق القائم الدائم، أقدم هذا العمل من شذرات أنواره، خدمة ومحبة لإخوانى فى الإنسانية، المتفكرين المتدبرين المتأملين، المتحررين فكرًا، الـــمفعّلين لفـــطرة الله السليمة فيهم.

أنيس الرفاعى

فهرست



الفصل الأول

غاندي الإنسان والحج

هذه تجربة الإنسان في سعيه إلى كسب إنسانيته بالرجوع إلى فطرته السليمة المجبول عليها في أعماقه. اخترنا تمثيلاً واقعياً لهذا السعي الفطري، مكللاً بالصدق، محاطاً بالمحبة لإخوانه في البشرية، لا تشوبه أية ذرَّة من أنانية، متجرداً من كل غرض لذاته. وقد وفّقنا لإنسان رأى تجربة سعيه إلى حقيقة معناه في داخله ملكاً لأعلاه الذي وفقه في سعيه الصادق إلى أمانة الحياة فيه.. إلى سر الله فيه.. رأى الواجب الإنساني تجاه أخوته في البشرية أن هذه التجربة الحقية التي أنارت عقله فأصبح إنساناً مستنيراً، وأحْيَتْ قلبه، وزَكَّتْ نفسه، وطَهَّرَت روحه وأطلقتها من سجين ذاته. وبما فيها من محبة توحدت مع نظيرها من أرواح طاهرة طليقة تعمل الخير وتنشر السلام في هذا العالم. رأى من باب المحبة وردّ الجميل أن يقدم ما قام فيه من فضل الله عليه، أن يقدمه لإخوانه الطالبين الحائرين في أمر تواجدهم على هذه الأرض، الباحثين عن عِلَّة وجودهم، اللاهثين وراء الحقيقة، المتعطشين لفك أسرار وجودهم، الطارقين لأبواب الحق، الطامعين في رحمة الله.

رأى أن يقدم لهم ذلك بأن يطرح في صدق وأمانة ما جاش في صدره، وأحسه في أعماق قلبه من تجربته الإنسانية، وكيف

تحـقق له ذلك. وما مر فيه من أحـداث سـاعدته من خـلال تأمـلاته وعون أعـلاه من تحقـيق مراد الله به. صـاغ ذلك بكتـابة سـيرته الذاتية. قدمهـا بأدب جَـمٍّ. وتواضـع صـادق. وذلك فـي أسـلوب سـهل العبـارة. عميق الإشـارة. يحـسـه ويؤثر فـي كل إنسـان يطوق إلـى التناغـم والترنـم مع هذه المعـاني الإنسـانية العميقـة. هذا الإنسـان هو المهاتمـا غـاندي. وكلمـة مهاتما تعنـي " روح عظيم " وقد رفض السـيد غاندي هذه التسـمية.

سـوف أتناول ترجمة بعض من هذه السـيرة الذاتيـة التي كتبها عن نفسـه تفيض نوراً ومحبـة وحيـاة. وسـوف أحاول تقديمها بالشـرح والتعليق لبيـان ما فيها من ثقافة روحية. ومن محبـة وخـدمة تُعْلي من رصيـد التراث المعنـوي للإنسان. وأيضـاً ما اعترض طريقـه من عقبـات وأزمـات. وصـراعات. كـانت محـلاً لتحـليله الواعـي وتفكيره الثاقب. وإضـافة لحكـمة عنده تأتيه من أعـلاه. ومـصـدره الثـاني هو تفاعلـه الحي مع أحـداث الحيـاة.

والغرض الذي دفع السـيد غاندي لكتابة سـيرته الذاتية كما ذكر في المقـدمة هو ببسـاطة " أريد أن أبلغ قصـة التجـارب العديدة التي صادفتني مع الحـق" ولا يَدَّعي لهذه التجـارب أي درجة من الكمـال ولكنه يقول: " أعبد الله كحقيقة. ولم أجده بعد. ولكنـي جاد في طلبـه ... وحيث أنني لم أتحـقق بهذا الحق المطلـق. سـأتعلق بقرب الحـق كما أسـتوعبه... وفـي سَيْري إلى الحق المطـلق كانت هناك لمحـات باهتة منه ".

هذه التجارب متاحة لكل إنسان طالب صادق متواضع.

ويطرح السيد غاندي تجاربه بحلوها ومُرِّها فيقول: " بُغيتي هو أن يتعرف القارئ بشكل كامل بكل أخطائي وزلّاتي...وفي الحكم على نفسي سأحاول أن أكون فظاً غليظاً مثل الحقيقة. كما أرجو الآخرين أن يكونوا كذلك".

وقد استخدم السيد غاندي كلمة دين بمعناها الأوسع؛ ألا وهو تحقيق الذات أو المعرفة عن النفس. وتعرّفه على الأديان جاء في الفصل العشرين قرب نهاية السنة الثانية له في انجلترا عندما صادفه أخوان صوفيان. وتحدثا معه عن "الجيتا" من خلال قراءتهما لترجمة " أغنية السماء " لسير أدون أرنولد. ودعوه ليقرأ النسخة الأصلية معهم ولم تسبق له قراءتها. وهذه الآيات من الفصل الثاني من الجيتا:

إذا أمعن الإنسان في الأشياء الحسية انجذب إليها

ومن الانجذاب تنمو الرغبة. وتشتعل الرغبة

لتندفع الشهوة. ويولد التهور من الشهوة

هنا الذاكرة – بكلها تخونه – وتدع الأهداف النبيلة تذهب

والعقل يكبل إلى أن يفسد العقل والعزم والإنسان

هذه الآيات تركت أثراً عميقاً في عقله. وظل أثرها يرن في أذنيه. ومنذ ذلك الوقت وهذا الانطباع آخذاً في النمو إلى أن اعتبر هذا الكتاب" الجيتا " من أعظم الكتب في معرفة الحقيقة. وقدم له عوناً يفوق التقدير في لحظات كآبته. وبعد عدة سنوات أصبح كتاب الجيتا

من الكتب المقروءة بشكل منتظم يومياً.

وأوصوا له بعد ذلك بقراءة " نور آسيا " ترجمة سير أدون أرنولد أيضاً. يقول السيد غاندي: "حين بدأت قراءتها لم أستطع تركها". وقدموه لمدام بلافتسكي ومدام بيزانت. وقرأ من تأليف مدام بلافتسكي " المفتاح للتصوف ". وكان تعليقه على هذا الكتاب " هذا الكتاب دفعني برغبة شديدة لقراءة الكتب عن الديانة الهندوسية ". وقابل شخصاً مسيحياً من مانشستر دفعه إلى أن يقرأ الإنجيل. وأعطاه نسخة منه. وكان شديد إعجابه " بالموعظة على الجبل " التي دخلت مباشرة إلى قلبه. ووجدها مطابقة للجيتا. وعلى وجه الخصوص الآيات:

" أقول لكم لا تقاوموا الشر. ولكن من ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر أيضا. وإذا أخذ أحد معطفك. دعه يأخذ عباءتك أيضاً ".

هذه الآيات أسعدتني إلى أبعد حد. وحاول عقلي الضئيل أن يُوَحِّد بين تعاليم الجيتا ونور آسيا. والموعظة على الجبل. هذا التنازل من السيد المسيح هو أرقى شكل من أشكال الدين " راقه كثيراً.

هذه القراءة حَرَّكَتْ شهيته لدراسة حياة معلمي الديانات الأخرى. ورَشَّحَ صديقٌ له قراءة "الأبطال وفضل الأبطال" لكارليل. " وقرأت الفصل عن البطل كنبى أدركت منها عظمة الأنبياء وشجاعتهم وحياتهم التقشفية".

وعنوان الفصل الواحد والعشرين كتبه باللغة الهندية مأخوذة من كتاب مقدس معناها " هو المعين للعاجز والقوة للضعيف " في

انجلترا اكتشف لأول مرة مبدأ أن اكتفاء الإنسان بالمعرفة الدينية لهو العبث بعينه؛ لأن المعاني الدينية لا يكسبها الإنسان إلا عن طريق تأمله في أحداث الحياة وفي نفسه وفيمن حوله.

وفي نهاية هذا الفصل أعطى معنى للصلاة يقول:

" تلك العبادة أو الصلاة تنبع من القلب. ويتم الوصول لطهارة القلب حين يكون فارغاً من كل شيء سوى الحب..الصلاة ليست في حاجة للكلام. إنها في حد ذاتها متحررة من أي مجهود حسي، وليس لدي أدنى شك بأن الصلاة وسيلة ناجحة لطهارة القلب من الشهوات، ولكن من الواجب أن ترتبط بأعلى درجات الخشوع" .

يسجل في الفصل الأول اعتقاده في ضرورة وجود معلم روحي لسالك طريق الله يقول: أؤمن بالنظرية الهندوسية للمعلم وأن لها أهمية في التحقق الروحي. وأعتقد أن هناك قدراً كبيراً من الحقيقة في أن المعرفة الحقة مستحيلة بدون معلم روحي ...والإنسان العارف بالله هو فقط الذي يستحق تتويجه معلماً روحياً. إذاً هناك ضرورة للجهاد الدائم لبلوغ الكمال؛ حيث أن الإنسان يقابل المعلم الروحي الذي يستحقه. والجهاد اللانهائي لبلوغ الكمال هو حق للإنسان، فهو جزاؤه، والباقي فيّ يد الله" .

"وثلاثة تركوا تأثيراً عميقاً في حياتي وأسروني هم: رايشاندبهاى بصلته القريبة مني، وتولستوي بكتابه " ملكوت الله بداخلك "، ورسكن " نحو هذا الدائم " هذه المعرفة الحقية في الله حفظته من اتباع معلم غير كامل. أما الثلاثة الذين ذكرهم آنفاً فهم قد أناروا له الطريق إلى المعلم الحق. وللأسف لم يذكر في سيرته

الذاتية شيئاً عن اتخاذه معلماً بعينه.

سافر إلى جنوب أفريقيا ليمارس مهنة المحاماة. قابل هناك بعض المسيحيين الذين حاولوا إقناعه بالعقيدة المسيحية كما وقرت في قلوبهم. ودار الحديث بينه وبين أحد المسيحيين كالآتي:" إنك لا تستطيع أن تدرك جمال ديننا. يتضح من كلامك أنك دائم الفكر مهموم بخطاياك، ومحاولتك دائمة لإصلاحها والتكفير عنها. فكيف تستطيع بسلسلة لا تتوقف من الأفعال أن تأتيك بالخلاص؟ ولن يكون في مكنتك إحراز السلام. فأنت معترف بأننا جميعاً خطّاءون. والآن انظر إلى كمال معتقدنا. ومحاولاتنا للإصلاح والتكفير كلها عبث. ولابد لنا من التكفير؛ لأنه كيف لنا أن نتحمل عبء الخطيئة؟ ليس لنا إلا أن نلقيها على المسيح. فهو الابن الوحيد بدون خطيئة. وكلمته للمؤمنين به ينالون بها حياة أبدية. الإيمان به فيه الرحمة اللانهائية. وبإيماننا بشفاعة يسوع فإن خطايانا لا تقيدنا، ونحن من طبعنا الخطيئة. ومن المستحيل العيش في هذا العالم بدون خطيئة. ولهذا عانى المسيح وكَفَّر بمعاناته عن كل خطايا البشرية. وهؤلاء فقط الذين قبلوا فداءه العظيم ينالون السلام الأبدي. فكر إلى أي مدى تعيش في قلق، ونحن ننعم بالسلام ".

هذه المناقشة فشلت كلية في إقناعه. وكان رده متواضعاً كالآتي: " إذا كانت هذه هي المسيحية المعترف بها من جانب كل المسيحيين فأنا لا يمكن أن أقبلها. وأنا لا أنشد التكفير عن نتائج خطاياي. أنا أنشد الخلاص من الخطيئة نفسها، أو على الأقل

الخلاص من فكر الخطيئة. وإلى أن أصل إلى الهدف فأنا راض أن أكون قلقاً".

هذا فكر فطرى نابع من أعماقه واتباع نور عقله المتحرر من الموروث الديني السطحي.

وخلال عمله في مهنة المحاماة اتبع ما أملاه عليه ضميره من أسلوب قائم على مبدأ التصالح عن طريق التحكيم بحيث يوفر لكلا الطرفين أتعاب المحاماة ورسوم القضايا والمصاريف الكثيرة على القضايا. ناهيك عن العداوة والمنافسة الشرسة في الأسواق- حيث أكثرهم تجار- ونجح في مئات من القضايا بهذا الأسلوب الذي أسعده كثيراً بقوله: " سعادتي لا حدود لها. تعلمت الممارسة الحقة للقانون. تعلمت كيف أنفذ إلى الجانب الطيب في الطبيعة الإنسانية وأدخل عن طريقها إلى قلوب الناس. وتحققت أن المهمة الحقة للمحامى هي أن يقارب بين الطرفين المتخاصمين المتباعدين. هذا الدرس ظل متأججاً في أعماقي طيلة العشرين عاما التي عملت فيها بالقانون. وهو أنني قضيت جزءً كبيراً من وقتي منشغلاً بتفعيل التصالح الشخصي في مئات من القضايا. لم أخسر شيئاً ولا حتى مالاً. وعلى يقين بأني لم أخسر روحي ".

ونرى في الفصل الخامس عشر كيف حاصره أصدقاؤه وهو في انجلترا، وأيضاَ في جنوب أفريقيا محاولين إقناعه بأن يعتنق عقيدتهم من مسيحيين ومسلمين وهندوس. ولكنه لم يقتنع بالمفاهيم السطحية لهذه الأديان، ورفض الانصياع لحثهم المستمر، حيث أنه درّب نفسه طيلة حياته على أن يتبع الصوت الداخلي الصادر

من أعماقه. يقول: " إنني في حالة من البهجة لخضوعي لـهذا الصوت الداخلي. ومن الصعب عليَّ أن أعمل ضده لأن ذلك يؤلمني".

وفي دراسة مقارنة للأديان يقول: " وجدت نفسي منهمكا في خدمة المجتمع. والسبب وراء ذلك هو رغبتي في أن أحقق ذاتي. فجعلت دين الخدمة هو ديني. لأني شعرت أن الله يمكن أن يدرك فقط عن طريق الخدمة...وكما قلت وجدتني باحثاً عن الله ومجاهداً لتحقيق ذاتي . وبعد قراءات كثيرة في الهندوسية والبوذية والإسلام والمسيحية والزرادشتية وكتب تولستوي بدأت أدرك أكثر فأكثر الإمكانيات اللانهائية للحب الكوني" .

وأضفى أهمية كبرى على الالتزام الصارم بالعهد وكيف نمى إدراكه بالعهد بصورة واضحة عن ذي قبل " أدركت أن العهد لم يغلق باب الحرية الحقيقية. بل فتحها. وحتى ذلك الوقت لم يحالفني النجاح لأني فاقد الإرادة. حيث أنى لا أثق في نفسي، ولا بفضل الله. ولهذا فإن عقلي مشوش في بحر عاصف من الشك. وعرفت أن رفض الإنسان أن يأخذ عهداً على نفسه. فهو حتماً مساق إلى الافتتان. وإذا ربط نفسه بعهد ما فهو مثل الذي دخل من نفق الفسوق إلى الزواج الأوحد الحقيقي. إني أعتقد في بذل الجهد. ولا أريد أن أقيد نفسي بعهد. تلك المقولة تنم على عقلية الضعف والخيانة ورغبة الهروب من أجل الشيء الذي يجب أن نتجنبه. وكما قال بعض الحكماء" الإقلاع (عن شيء) دون كراهيته لا يدوم ". فإذا ذهبت الرغبة فإن العهد على الإقلاع سيكون بمثابة الثمرة

الطبيعية الحتمية ".

وتطرق إلى القوى العقلية، فرأى من الواجب عليه أن يتحكم في قواه العقلية وفى أفعاله وما يتفوه به. ويتحكم في نظره بألا يرى إلا عظمة الله، وألا يسمع إلا حمد الله، وقضاء الليل في الصلاة، ويصلح داخله ليكون معبداً لله. وليس هناك حدود لما يهجره الإنسان ويستنكره.

يميل العقل للفكر اللاإرادي، وكبح جماح الفكر، يعنى قمع العقل، وهذا الأمر أكثر صعوبة من التصدي للريح. ولكن وجود الله داخل الإنسان يجعل التحكم في العقل سهل وممكن. إنه الهدف الأسمى، وليس من المستغرب أنه من الواجب بذل أقصى مجهود لينال الإنسان هذا المعنى ألا وهو التحكم في العقل، ولكن بعد رجوعي إلى الهند وفقت إلى التحكم في الحواس مثل الفكر والقول والفعل، وهذا التوفيق من الصعب نواله بمجرد القيام بجهد إنساني. وحتى ذلك الوقت كنت أجهد نفسي بخضوعي لوهم.. وهو أن تناول الفاكهة فقط سيمكنني من محو الشهوات. وكنت أتملق نفسي باعتقادي أن ليس هناك أكثر من ذلك."

"في نفس الوقت دعني أوضح لهؤلاء الذين يرغبون في مشاهدة التحقق في الله ألا ييأسوا، حيث أن إيمانهم بالله مساو لثقتهم في جهادهم الشخصي. إن الحس المادي يتراجع أمام الروح المتعفف تاركاً اللذة خلف ظهره. واللذة كذلك تختفي مع التحقق في الأعلى. وبهذا يكون اسمه ومجده (الله) مدد الطالب".

وهنا يصرح بكيفية السلوك في الحياة ليكرمه الله بهذا

التحقق فيقول:

" كيف يُجَرِّد الإنسانُ نفسَه من كل ما يملك؟! ... أليس الجسد نفسه كملكية كافياً ؟

أليست الزوجة والأولاد ملكية ؟ .. أليس تحطيم كل الكتب هو عدم ملكية؟

أليس هو التخلي عما أملك وأن أتبعه؟

وجاءني الجواب مباشرة: لا أستطيع أن أتبعه ما لم أتجرد من كل ما أملك. هنا نما اهتمامي بالشريعة، واكتشفت ذلك في الدين، وفهمت من تعاليم الجيتا أن عدم التملك يعني أن هؤلاء الذين يرغبون في الخلاص يجب أن يعملوا مثل الوصي، فرغم تحكمه في ملكيات كثيرة إلا أنه لا ينظر قيد أنملة في أي منها على أنها ملك خاص له. وأصبح جلياً عندي مثل النهار المشرق أن عدم الملكية والمساواة يفرضان سلفاً تغييراً في القلب، وتغييراً في الاتجاه".

في باب الصدام مع السلطة يقول:

" اكره الذنب ولا تكره المذنب. هذا الإدراك رغم سهولة فهمه إلا أنه نادراً ما يُطَبَّقْ، ولهذا فإن سم الكراهية ينتشر في كل أنحاء العالم".

ويتكلم عن وحدة الوجود الإنساني كما أَحَسَّها بتعبير بسيط واضح يقول:

" هذه "الأهمسا" تعني فلسفة عدم الأذى عند الهندوس،

هي القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها البحث عن الحقيقة، ويثبت لي في كل يوم أن هذا البحث يذهب سدى إذا لم يؤسس على عدم الأذى. من اللائق مقاومة ومهاجمة نظام بعينه، ولكن مقاومة ومهاجمة المتسبب فيه هو بمثابة مقاومة ومهاجمة الإنسان نفسه؛ لأننا نشترك جميعاً في نفس العيوب، حيث أننا أطفال نفس الخالق الواحد، وعليه فإن القُوى المقدسة بداخلنا لانهائية. والاستهانة بأي إنسان لَهُو استهانة بهذه القوى المقدسة، والنتيجة أننا لا نضر فقط بهذا الإنسان ولكننا نضر معه العالم كله ".

المعاني الإنسانية الراقية موجودة في كل إنسان، تظهر إذا رجع إلى فطرته السليمة التي فَطَرَه الله عليها. في الفقرة الآتية يُعَبِّرُ السيد غاندي عنها بتلقائية لأنها حية عنده، لم تطمسها أحداث وتجارب الحياة، بل كانت تلك الأحداث في حياته دافعاً ومحفزاً لإظهار فطرته السليمة بتعبير لم تفارقه الشفافية في الإفصاح عنها، يقول:

" إنني أكتب في الاتجاه الذي تحركني إليه الروح (الروح العظيم الساري في الوجود) أثناء الكتابة. وإنني لا أدعي أني أعرف تحديداً أن كل الأفكار والأفعال الواعية من جانبي توجه بالروح، ولكن حين أقدمت على مراجعة الخطوات الكبرى التي خطوتها في حياتي، وأيضاً تلك التي ربما ينظر إليها أنها ليست بالخطيرة، أعتقد أنه ليس من اللائق القول أن المُوجِّه لكل تلك الأفكار والأفعال هو الروح.

"إنني لا أراه (الروح) ولا حتى قد عرفته. وإنني بهذا قد جعلت الإيمان السائد في العالم هو إيماناً لي. وحيث أن إيماني لا انقضاء له، فإني أرى هذا الإيمان يبلغ مستوى التجربة. مع أنه كما يقال أن تأخذ الإيمان على أنه تجربة فإنك بهذا تتلاعب أو تعبث مع الحقيقة، وربما لو جانبنا الصواب نقول أنني لا أملك التعبير أو التمييز عن إيماني بالله. وأعتقد أن المؤمنين الذين يرون نفس الإله في الآخرين هو هو الذي يرونه في أنفسهم قادرون حتماً على أن يتعايشوا مع الكل بتجرد تام عن الأغراض الشخصية".

وعمل بالصحافة ناشراً مبادئه السامية مستخدماً أمانة الكلمة لإعلاء الحق والعدل:

" من بداية الشهر الأول لجريدة "الرأي الهندي" وأنا مدرك أن الهدف الوحيد للصحافة يجب أن يكون الخدمة، صحافة الجرائد قوة عظمى، ولكنها كتيار منهمر من الماء يغمر كل أجواء الريف مدمراً المحاصيل، هكذا القلم الجامح لا يخدم إلا الهلاك. فإذا كان التحكم من الخارج فهو يبرهن على سمية أكثر من احتياجه للتحكم. وفي إمكانه أن يكون مفيدًا في حالة فرضه من الداخل ".

قرأ كتاباً بعنوان " نحو هذا الآخر " للشاعر رسكن، فوجد ضالته فيه، حيث أيقظ ما في داخله من معان، ودفعه إلى تطبيق وممارسة هذه المعاني؛ لأنه وجد أنها تتناغم مع فطرته الإنسانية المستقيمة. يقول في ذلك:

" أعتقد أني اكتشفت بعضاً من العقائد الراسخة في أعماقي مصورة في هذا الكتاب العظيم لراسكن، ولهذا فإنها أسرتني ودفعتني لتحويل حياتي. والشاعر هو واحد في استطاعته أن يُخْرِج الخير الكامن في صدر الإنسان ". واستخلص من قراءته أن الخير الموجود في إنسان يحتويه الخير الموجود في الناس جميعاً. وعملُ المحامي له نفس القيمة لعملِ الحلاق؛ من حيث أن كليهما له الحق في كسب عيشه من عمله. وحياة العامل - والعامل هنا مثل الذي يفلح الأرض - وحياة الصانع الحرفي لهي الحياة التي تستحق أن تُعاش. فقضية الخير أعرفها، ومساواة المهن وعدم تفضيل مهنة على أخرى بغشاوة أدركها، أما حياة الكد والجهد لم تصادفني في حياتي. وكتاب " نحو هذا الآخر" كشف لي بجلاء عن هذا الأمر. ونهضت في الفجر مُعِدّاً نفسي لأحوِّل هذه المعاني إلى ممارسة عملية". وبالفعل وبمعاونة بعض الأصدقاء حوّل السيد غاندي عمال وموظفي جريدة الرأي الهندية إلى فلاحين، بأن اشترى قطعة من الأرض كبيرة وزرعها بقدرة وتضحية وولاء مساعديه في المطبعة، وسمى ذلك بتجاربه الأخلاقية، إلى جانب أنه استقطع جزءً بسيطاً جداً من الأرض وخصصه للجريدة نفسها. وبهذا ظهرت للوجود مستوطنة زراعية بدأت إنتاجها سنة ١٩٠٤ في جنوب أفريقيا وأطلق عليها اسم " مزرعة تولستوي".

نجح السيد غاندي في التحكم في رغباته وشهواته، ووهب نفسه ووقته وكل قواه الجسدية وبذل ما يملك من ماله الزهيد

في مجال الخدمة.. الخدمة للقريب والغريب، إلا أنه وجد أن هناك مجالاً جد خطير يعوقه عن الرقي الروحي ألا وهو التحكم في الفكر، يقول:

" اليوم أستطيع أن أقول أني في أمان لحد ما، ولكن ما زلت لم أحقق التحكم الكامل في أفكاري، وهذا معنى جد أساسي، وأنني لا ينقصني الجهد أو الإرادة، لكنها مشكلة باقية، ولا أعرف من أين تنبعث وتغزوني تلك الأفكار الخاتلة، غير المرغوب فيها، ولا يساورني الشك في أن هناك مفتاحاً لحبس هذه الأفكار غير المرغوب فيها، وعلى كل إنسان أن يكتشف مفتاحه بنفسه. وقد ترك لنا القديسون والأنبياء تجاربهم ولكن لم يمنحونا العصمة والكمال، والتحرر من الخطأ يأتي للإنسان من فضل الله... وبدون تسليم الإنسان لله بإخلاص لجلاله لن يمكن السيطرة الكاملة على فكره ".

والعقل غير النقي، وغير المدرك لما هو فيه لا يمكن أن يتطهر بالصيام. والاعتدال في الطعام ليس له تأثير على العقل. وشهوة العقل لا يمكن اقتلاعها إلا بمراقبة شديدة للنفس، والتسليم لله أولاً وأخيراً يرجع لفضل الله... والعقل الشهواني بدلاً من أن يتحكم في الحواس يصبح عبداً لها. ولهذا فان الجسد دائم الحاجة للنظافة بالأطعمة غير المثيرة والصيام المرحلي". ويذكر بعد ذلك" إن الصيام يصبح عبثاً إذا لم يصاحبه اشتياق مستمر لمقاومة النفس... الصيام الجسدي إذا لم يصاحبه

صيام عقلي فمصيره نفاق ورزيلة". وينقل بعض الأبيات من كتاب مقدس يقول:

للإنسان الذي يكبح جماح حواسه الخارجية

تختفي الأشياء الحسية تاركة

وراءها الاشتياق، ولكن حينما

يرى الأعلى

يتلاشى حتى اشتياقه

التحكم في العقل كطاقة نورانية قابلة للزيادة من مصدر الحق بتمارين روحية على التركيز واليقظة ثم التوجه بها كفكر لإصلاح وجود الإنسان وإذا لم يتحكم الإنسان في عقله استولت عليه النفس، وأصبح أداة لتنفيذ أغراضها. فيصير عقلاً نفسياً، يغمر الوجود الإنساني بالظلام، وأفعال الإنسان حينئذٍ تسير به إلى فناء؛ لأنه يعمل للفاني وهو الجسد. وهكذا كان السيد غاندي محاولاً جاداً في التحكم في عقله بتوجيه فكره إلى ما يراه حقاً ومستقيماً ونافعاً له وللآخرين.

ويواصل السيد غاندي حديثه عن الإنسان الباحث عن الحقيقة، وما يعترض طريقه إليها يقول: " في مسيرة الإنسان نحو الحقيقة يستجيب (لضعف في نفسه) للغضب، والأنانية، والكراهية..الخ. والإنسان الذي تسيطر عليه شهواته، ربما يكون لديه نوايا حسنة، وصادق الكلمة، ولكنه لن يجد الحقيقة

أبداً. البحث المُوَفَّق عن الحقيقة يعني التخلص الكامل من الحشد الكثير من الإثنينية.. مثل الحب والكراهية، السعادة والتعاسة".

حينما رجع إلى الهند اشتغل بالحاماة ولم يقبل إلا القضايا التي يجد أن عميله له الحق كل الحق فيما يطالب به. يقول السيد غاندي:

" وتأكد لي باعتقاد راسخ أنه من المستحيل تناول قضايا متعلقة بالقانون دون أن تشتمل على الحق. ومع ذلك دع القارئ يتذكر أنه حتى الصدق في ممارسة المهنة يعجز عن مداواة القصور المتأصل الذي يفسدها ".

واستقر في أحمد أباد وأنشأ مدرسة ورسَّخ في قلوب الطلاب محو النفس، وهي مراقبة شديدة للنفس، مع التواضع أثناء تقديم الخدمة. والخدمة بدون تواضع هي الأنانية.

وأنشأ ستة مدارس ابتدائية لأبناء الفلاحين في ست قرى، واستعان بأصدقاء متطوعين للقيام بالتدريس، وعنى بالصحة العامة، ونشر القواعد الصحية المتعلقة بالبيئة، ونظافة البيوت والأفراد، لما رآه من تدني العناية بالنظافة وانتشار الأمراض. واستعان في هذا المجال بصديق طبيب، وعملت السيدات المدرسات كمساعدات للطبيب في نشر وتقديم الرعاية الصحية. ورفع عن كاهل الفلاحين البسطاء ما فرضه عليهم أصحاب الضياع من ابتزاز، بعد صراع مرير مع السلطة، وأصحاب الضياع.

تصديه لخدمة الفلاحين وعمال الفلاحة ضد الحكومة دفع كثيرين من أنحاء عدة من البلاد إلى إرسال شكاوى عن أوضاعهم المتردية بسبب تدني الأجور، وآخرون تبنى قضيتهم ضد الحكومة التي فرضت ضرائب عليهم في حين أن المحصول كان ضئيلاً للغاية. واعتمد في كفاحه هذا على نشر الوعي بين الفلاحين بأن أزال الغشاوة عن أعينهم، وأوضح أن القضية الرئيسية هي أن يتخلص الفلاحون من خوفهم من المسئولين. حيث أن المسئولين في ظل حكم عادل مستقيم ليسوا سادة، ولكنهم خدم للناس: لأنهم يتقاضون رواتبهم من ممولي الضرائب (أي من الناس). وأكد على أن إزالة الخوف عنهم لا يعني العنف حين يطرحون مطالبهم. وشرح معنى الكياسة واللطف بأنهما لا يعنيان مجرد مظهر خارجي من المسالمة وحديث منمق يتماشى مع الموقف، ولكنه إحساس تلقائي داخلي يعكس سلوك يحمل في طياته رغبة الخير لمن تواجهه.

وبسبب جده وإخلاصه في طلبه للحقيقة عن طريق الخدمة، وجّهه الله ووفقه إلى رفع المعاناة عن النسوة الهنود، نصف الجائعات ونصف العاطلات عن العمل: بأن جعلهم يغزلن القطن. ونجح في إلباس البسطاء من الهنود قماشاً مصنوعاً محلياً. وهو لا يعلم عن هذا الغزل أو ذاك النسيج شيئاً، فوفقه الله إلى الأماكن التي يجلب منها دولاب الغزل لصنع الغزل، ثم النسيج عن طريق الأنوال اليدوية. تم له ذلك عن طريق أدوات خير من الناس، يحبون الخير لذاته. فكان السيد غاندي بذلك أداة خير وسلام ورحمة

للبسطاء والفقراء من الناس أبناء جلدته، حيث أن القماش المنتج من مصانع النسيج يَعِزُّ على الناس شراؤه؛ حيث أنه يتداول في الأسواق حسب نظرية العرض والطلب.

وفي طول البلاد وعرضها كانت أسفاره كثيرة، يخطب في الناس ويبصرهم بحقوقهم، ويحضر المؤتمرات والمقابلات بالمسئولين، ويقود الاجتماعات. وفي أثناء المؤتمرات والاجتماعات كان يحفز النوايا الطيبة من ذوي الرأي والمثقفين والمسئولين، ويحاورهم في هدوء ومنطق وأدب جم حين يطرح قضاياه، وينفذ بطاقته الروحية في الناس كي لا يلجأوا للعنف وهم يطالبون بحقوقهم البسيطة الإنسانية المشروعة.

وفي مؤتمر عام اشترك فيه أكثر رموز الدولة أقروا فيه مبدأ اللا تعاون مع الحكومة في حالة ثبوت خيانتها للشعب، وإقرار الديمقراطية لجموع الشعب وصيانتها، والحفاظ عليها، إذاً يتحتم على الناس أن يكون لديهم حساً قوياً باستقلالهم واحترامهم لذاتهم، وتقوية وحدتهم. وأن يكون ممثلوهم ذوي استقامة وإخلاص. ومن أهداف المؤتمر تحقيق الحكم الذاتي تحت ظل الإمبراطورية البريطانية. كل ذلك يتضمنه الدستور الذي قدمه السيد غاندي للمؤتمر، وأقر المؤتمر مشروع قرار وحدة هندوسية إسلامية، وإلغاء مفهوم المنبوذين من الهندوس.

لكل إنسان صادق في طلب الحقيقة رفيق مرشد. وقد ظهر هذا المرشد عندما قاربت السيرة الذاتية على الانتهاء. ظهر السيد لوكامانيا في رثاء موجع هز كيان السيد غاندي فقدان شبحيته

فيقول عنه السيد غاندي:

" فقدان لوكامانيا ترك ألماً موجعاً في أعماقي أثناء الجلسة الخاصة. إيماني الراسخ الدائم يؤكد لي أنه لو كان السيد لوكامانيا ما زال حياً لأسبغ عليّ بركته في هذه المناسبة. وحتى إن لم يكن الأمر كذلك، وكان معارضاً لهذه الحركة (حركة عدم التعاون) فكنت وما زلت أقدر معارضته كفضل منه وتعليم لنفسي . نختلف في الرأي، ولا يؤدي ذلك دوماً إلى كراهية بيننا. وكان يوحي إليّ دوماً أن الروابط بيننا تقرّبنا دوماً. وظروف موته وأنا أكتب هذه السطور ما زالت ماثلة حية أمام رؤى عقلي".

ولا ندرى إن كان السيد لوكامانيا هذا معلمه الروحي أم لا.

وأخيراً يودع القارئ بأن وصف الحقيقة كما تراءت له وبالطريقة الدقيقة التي توصل إليها بجهد لا يفتر. وهذه الممارسة (في توخي الصدق والأمانة في وصف الحقيقة) منحته سلاماً ذهنياً يفوق الوصف؛ لأن أمله المنشود هو أن يدخل مفهوم الإيمان والحقيقة والحب في قلوب المترددين. وتجربته أقنعته أن الله هو الحقيقة. "وإن لم تقنع كلماتي في هذه السيرة القارئ بأن التحقق في الله يأتي عن طريق الحب فإن كلماتي هذه تكون قد ذهبت سدى".

وأن اللمحات العابرة التي نالته من الحقيقة بالكاد تستطيع أن تنقل فكرة عن مجد الحقيقة الذي يتعذر وصفه. يقول في هذا:

" إنه نور يفوق ملايين المرات ضوء الشمس، وفي الحقيقة أن الذي لمحته هو فقط وهج خافت من هذا البهاء المفرط. ولكن

الرؤية الكاملة للحقيقة تأتي للإنسان بإدراك كامل، والتمسك بالحب".

ولكي يرى الإنسان روح الحق الساري في كل هذا الكون وجهاً لوجه- المقصود هنا ما يمثل هذه الروح- فعليه أن يحب أحقر المخلوقات حبه لنفسه. والذي ينشد هذه الرؤية يقبل كل مناحي الحياة. ولهذا كرَّس كل طاقاته للحق الذي دفعه للعمل في السياسة كمجال للخدمة. وبكل تواضع وبدون تردد يستطيع أن يقول أن الدين له علاقة وثيقة بالسياسة.

"والوحدة مع كل ما هو حي مستحيلة بدون التطهر. بدون تطهير النفس يظل الالتزام بقانون الحب حلماً فارغاً. والتحقق في الله يستحيل على قلب غير طاهر. تطهير النفس يعني التطهر في كل مجالات الحياة. وإذا حدث تطهير كامل لنفس الإنسان، سرى تطهره فيمن حوله فيطهرهم. ولكن طريق التطهر هذا صعب وفيه تردي وانحدار. وللقيام في تطهر كامل فعلى الإنسان أن يصبح متحرراً تحرراً كاملاً من شهوة الفكر والكلام والفعل، وأن يسمو فوق التيارات المتعارضة من (حب وكره، التعلق والنفور..) " ويعرف أنه لم يحظ بالقيام في هذا التطهر الثلاثي رغم سعيه الحثيث إليها. يقول السيد غاندي:

" إطراء العالم من حولي لم يفلح في إثارتي داخلياً وتصديقه، بل إن هذا الإطراء يؤلمني، والتغلب على الشهوات الخاتلة يبدو لي أصعب من هزيمة قوة الجيوش".

ومنذ أن رجع إلى الهند وله تجارب مع الشهوات الكامنة في نفسه، يقول:

" معرفتي بهذه الشهوات جعلتني أشعر بالهوان؛ لأنها لم تقهر بعد. فعرفت أنه ما زال أمامي طريق صعب عليّ أن اجتازه باختزال نفسي إلى الصفر. وطالما أن الإنسان لم يضع نفسه طوعاً وبإرادة حرة في آخر الصف مع أبناء جلدته من البشر، فليس له أن يطمح في خلاص نفسه. وأن التحرر من شهوة الفكر والكلام والفعل لهي أبعد حدود التواضع الحق ".

وقضى كل حياته خجولاً جداً، لا يتكلم إلا إذا دُعِي للكلام.

ويقول " وداعاً، وإني إذ أودع القارئ إلى ها هنا، أسأله أن يشاركني في صلاة لله الحق، وأن يمنحني نعمة الحب في الفكر، والقول، والعمل".

وإذا نظرنا إلى منسك الحج لوجدناه يرمز إلى هذه المعاني التي ذكرناها في مقدمة هذا البحث، والتي قام فيها وعاش في مناسك منها السيد غاندي، وسوف أتناول بالتأمل والتدبر للخطوات الدقيقة التي رسمها لنا سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لنستخرج منها هذه المعاني الروحية، والمعنوية، والحَقّيَّة، والإنسانية.

وقبل أن ندخل في تفاصيل وتتبع خطوات منسك الحج ودلالته على رحلة الإنسان إلى داخله، أود أن أنوِّه إلى السيد غاندي،

وتحديداً، على اعتماده الكلي على الصوت الداخلي، وعلى عقله، وعلى فطرته السليمة، التي فطره الله عليها. فلو أنه اعتمد على الموروث الدارج من المفاهيم المنتشرة الجامدة التي وقفت عند ظاهر اللفظ، ووضعت الدين في إطار سطحي، يخدم وينظم حياتهم المادية – أي خدمة الجسد – لما أمكنه أن يقيم صلة بالمعاني الربانية الموجودة في وجوده الروحي. فقد اتجه إلى ما فوق حجابه الحاجز – إلى قلبه وعقله – وهذَّبَ ما دون ذلك (تحت الحجاب الحاجز) بالتقشف الصارم والصيام؛ حتى لا ينقلب الجسد من هيكل يعبد فيه الله إلى معبود يرعاه ويعيش من أجله.هذا ما رآه السيد غاندي.

الاعتدال والاستقامة هما المعيار الذي يقيس به كل إنسان ما يحتاج كل عضو فيه حتى يكون سليماً معافى، ولا يطغى على وجوده كله، ويصبح كل هَمِّ الإنسان التوجه بكله إلى عضو بعينه. فهناك حواس داخلية للإنسان تمثل وجوده الروحي، لها ما لها من مناسك، ورعاية، وتمارين تقويها، وهي الرياضة الروحية، ولا يتسع المجال للدخول في تفاصيل تلك الرياضة، وهذا الطريق الشاق داخل الإنسان، ليس فرضاً جازماً على أحد، ولكنه كما أشير إلى ذلك في القرآن الكريم عن منسك الحج " لمن استطاع إليه سبيلا ".

نعود إلى طرح رؤية لمستها أثناء تأديتي لمنسك الحج، وهي رؤية خاصة نتيجة تأمل فيما رسمه لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. رسمه بدقة متناهية. وهذا الرسم يوضح

للإنسان المتأمل في وجوده كيف يسلك، حتى يكون سلوكه مستقيماً إلى داخله.

والخطوات المتعاقبة لمنسك الحج هي رمز يكشف للإنسان خطة الرحلة التي عليه أن يسير فيها، هذا إذا أراد أن يكسب معناه الحقي في الله. فهو يبدأ بالطواف عدة مرات في محاولة الوصلة بداخله.. إلى مركز وجوده، وهو قلبه الذي فيه سر الله (الأمانة). والكعبة هنا تمثل قلب الإنسان، ويفشل في الدخول، لأن الله في حالته هذه " يحول بين المرء وقلبه": لأنه لم يستعد بعد لمشاهدة ما في داخله (قلبه). ودعاؤه أثناء الطواف هو شفيعه عند ربه، فيعلمه ويأخذ بيده إلى كيفية تحقيق هذه الوصلة ألا وهي الولوج إلى داخله.

فيأخذه إلى الخطوة الثانية..إلى الصفا والمروة، وهما جبلان ليس ارتقاؤهما بالشيء السهل. فعليه أن يسلك طريق الصفاء، وما فيه من مشقة إخضاع النفس، وتسكين أهوائها، وإفلات قبضتها من على العقل حتى يصفو قلب الإنسان (داخله)، فيهرول إلى الجبل الآخر، حتى لا يقل أو يضيع صفاؤه ليرتوي. وبهذا يخلّص هيكله مما جذبه من فكر حطام الدنيا (دناه) وشهواته المرتبطة بأعدى عدوه.. نفسه التي بين جنبيه. ويعاود الكرة ليصفو من طبقات الظلام المتراكمة بداخله التي اكتسبها عبر سنين حياته، ويهرول ليروي مبدلاً ظلامه بنور، ويظل كذلك عدة مرات، بين صفاء وري، إلى أن يهيئ وجوده لتلقي العلم عن وجوده الداخلي - الذي يريد أن يلجه للقاء سر الله فيه - مستعيناً بأعلاه، مستخدماً عقله في

طلب المعرفة. فيتجه إلى عرفات " الحج عرفة " وهو جبل المعرفة. المعرفة عن نفسك، حتى تستطيع أن تحولها من أمّارة بالسوء إلى طاقة تحميك، وتشد أزرك، وتصد عنك أي طاقات ظلمانية على هذه الأرض، هنا يتجه الإنسان إلى عقله، تاركاً قلبه إلى حين، ليدرك قضيته في الله، فيصعد ويتسامى إلى الكم الهائل من المعرفة.. إلى جبل عرفات. تتعلم عن طاقات النور لعقلك، وكيف يتسع بالتأمل والتدبر والتفكر. وكيف يجلب لوجوده نوراً أكثر وأكثر. وكيف يحوّل العلم عن شيء إلى معرفة وثقافة بالتأمل العميق مستعيناً بربه " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ". إلا أن تتسع وتخرج من ضيقها، بتفاعل العقل وفاعليته معها ومع الوجود من حوله، ومع ما أودع الله فيه من سره.

إذا بدأ الإنسان في تلقي واكتشاف هذه المعرفة وهو على جبل عرفات، ينهل منه ما استطاع، ترافقه رحمة من ربه، ترعاه وتؤازره، وتحميه من كل الطاقات الحمراء، والطاقات المظلمة من حوله، محافظة على ما اكتسب من صفاء، وما غمره من ري. هذه الحماية والرعاية الرحيمة يرمز لها بجبل الرحمة الموجود بعرفات.

كل هذا الصفاء (الصفا) والري أيضاً من زمزم (المروى) والمعرفة المكتسبة من عرفات، يذهب بكل هذا في رحلة شاقة إلى المزدلفة. والازدلاف هو الاقتراب. وهو من مادة (زلف) أي قرب وتقدم. وحين نصل إلى المزدلفة لا نجد فيها إلا مسجداً لرسول الله. وليس ميسراً القرب من رسول الله إلا بعد رحلة شاقة يقوم بها الإنسان محتفظاً في وجوده (صفاء ورياً ومعرفة) بكل

هذا وبقلب سليم يبيت المزدلف عند رسول الله ليجهزه بسلاح يرجم به شيطانه، ويمحو ما به من أبلسة، بتزويده من فيض كرمه بجمرات من عنده – من اقترابه – ازدلافه، ولا يكون الرجم ناجحاً إلا من المزدلفة. وعدد الجمرات هنا إشارة إلى كثرة الرجم وطول المدة، لأن هذا الكيان الشيطاني الموجود في الإنسان كامن وملازم لوجود الإنسان على الأرض، ومستحوذ على كيان الإنسان قبل وأثناء رحلة الحج. فيذهب الإنسان في رحلة إلى منى، متمنياً على الله أن يخلّصه من شيطانه. والشيطان من ظاهر اللفظ حسب تأملي هو الشيء طان، الشيء الذي طان. ويظل الشيطان ملازمه إذا كانت إرادة الإنسان متجهة إلى شيئيته من الطين، أي إلى جسده " إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم " وإذا خلصت إرادته، واتّجهت إلى معناه الروحي، وهو المعنى الأصل، المعنى الذي أتى به إلى الأرض، واتخذ منها جسداً يأويه، وسيخرج منها يوماً ويرُدُّ لها ما أُعِيرَه منها، ويرجع إلى المعنى الأصل أو الجوهر، كاسباً معناه الإنساني والروحي، أو منحدراً إلى سابق إرادته التي كانت متجهة إلى الشيء الطين (الدنيا).

وهذه المقدمة حتى نعرف ماذا نرجم؟ ولماذا نرجم؟ هذا الرجم رمزُ لرجم شيطاننا فينا. ولماذا؟ لنحوّل إرادتنا من اتّجاهها لمعنى الشيطان فينا إلى طلب الحق المنقبر في قلوبنا، (أنا حي في قبري)، وهي المعاني الإنسانية الفطرية السليمة التي كسبها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وكمثل أعلى لنا، ومن باب الرحمة جعل رمز الرجم يدلنا على وجود هذا المعنى فينا. فلنرجم

شيطاننا، ونقوم في المعنى الذي قام هو فيه " كان لي شيطان فأعانني الله عليه فأسلم فهو لا يأمرني إلا بخير". وهو المعنى الذي ذكرته من تحول النفس من عدو إلى دافع للخير.

أما إبليس..فهو معنى موجود في الإنسان أيضاً. إذا تأملنا في اللفظ وجدنا أنه مكون من مقطعين – أب ليس – فهو معنى موجود في الإنسان، ملازمه وهو متمسك بجاهليته. فأهل مكة رفضوا أن يتخذوا من سيدنا محمد أباً روحياً لهم، يرعاهم ويرشدهم روحياً ومعنوياً إلى معناهم في الله. هم يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بمحمد. هم يؤمنون بالله وبالأصنام " يقرّبوهم من الله زلفى " أما سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – إذا آمنوا به وبربه سيذهب سلطانهم وريادتهم، ويسويهم بالعبيد. فقضية الدين هي أن نؤمن بإنسان (اتقوا الله وآمنوا برسوله). خاض التجربة الإنسانية في داخل وجوده مستعيناً بربه، ومن باب الرحمة، ينقل هذه المعاني التي كسبها للإنسان. ولم يفرض عليه هذه التجربة، بل كان رحيماً بضعاف النفوس، وبضيقي العقول، ويقول نقلاً عن ربه " لمن استطاع إليه سبيلا ".

وبعد أن يرجم شيطانه، ويتخلص من جاهليته برجم إبليسه، إذا فعل ذلك بصدق فقد تطهر تماماً ويستحق أن ينتمي إلى أسرة روحية، ترعاه وتدفعه إلى أعلاه، ولا يلتفت وراءه لشيطانه وإبليسه. هنا يستأنف رحلته الشاقة أيضاً من منى، بتمنيه ودعائه، متوجهاً إلى البيت الحرام، إلى داخله، إلى قلبه.

هنا بعد أن أصبح فارغاً من كل معنى يعوقه، ويحول بينه وبين

قلبه. لقد زال معنى الشيطان وإبليس وتحصيله لعلم هو نور معرفة بَدَّدَ ظلام نفسه. وأحيى قلبه بعد ممات. هنا يطوف طواف الإفاضة. هنا يطوف حول باطنه. حول قلبه الذي يحمل أمانة الله فيه "عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان... " يطوف حول معناه. وهو سر الله فيه. لقد أصبح متسعاً بالعلم من عرفات – مستنيراً – فيفيض الله عليه بلقائه فيه. فيرى ما رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" انعكس بصري في بصريتي فرأيت من ليس كمثله شيء ". وهذا هو المعنى الذي أشار إليه السيد غاندي بأنه اقترب منه ولا يدعي أنه رآه أو قابله.

" ما أعطيته فلأمتي ".. " كلما ألبسني الله ثوباً خلعته على أصحابي".. " أحبوني يحببكم الله لكم من الله ما لي". فهو مثل أعلى أبرزه الله للبشرية.

وبالحب والإيثار والخدمة. كما فعل السيد غاندي نكسب معانيه في الله. " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه كما يحب لنفسه" ..خالصاً مخلصاً لعمله. وخدمة الناس. بهذا يصل الإنسان لهذه المعاني التي رسمها رسول الله صل الله عليه وسلم في منسك الحج. الأساس في كسب كل خطوات الحج قائم على الدعاء والرجاء والطمع في رحمة الله. أما العمل والتأمل وكل جهاد الإنسان وسعيه في الحج هو مجرد تهيئة الإنسان لوجوده؛ ليكون مستعداً لتقبل فضل الله وكرمه.

أوامر الدين هي إشارة لقوانين الحق، وعلى الإنسان أن يكشف عنها بالتأمل والتدبر والتفكر، حتى يبدأ محاولة القيام فيما أمره الله. أما تنفيذ الأمر بدون فهم يفقد الإنسان المعنى الذي وراء الكلمات، فيصير حيواناً مقلداً. فتأدية المناسك، مثلاً، بدون فهم يفرغها من مضمونها، ومن القصد منها. فكل حركة في الصلاة لها معنى، ولا يتسع المجال لشرح تأمل فيها، لأن كل إنسان له تأمله الخاص حسب مستواه الروحي وحسب حالته المعنوية أثناء الصلاة.. فإذا تأملنا في كل صلاة ظهر لنا معنى جديد، فيجدد الإنسان معنى الصلة بربه بصفة مستَمرة، إن فعل فإنه يتّبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: " إنه لَيُغَانُ على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم سبعين مرة – فقالوا له " أأغيان أغيار يا رسول الله " قال " لا. بل أغيان أنوار". فهو يستغفر من معنى نوراني عنده، لأنه رأى بتأمله معنى نوراني أعلى في الله ذي المعارج، فالعلم في الله لا نهائي.

وكما انفلقت الذرة وخرج منها طاقات هائلة مفيدة للبشرية (هذا تطور مادي) كذلك كلمات الدين هي كنزٌ يريد من المتأملين المتفكرين أن يفجروا الكلمات بأنوار عقولهم، ليستخرجوا ما فيها من معانٍ تفيد المتأمل ومن حوله. وهذا ما فعله الأدباء الرمزيون في القرن العشرين، وما فعله المتصوفة في كل دين، وفعله الأنبياء والحكماء، والمعلمون الروحيون على مَرِّ العصور.

مواكبة وتجديدا لهذه المعاني التي قام فيها السيد غاندي، ورسمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منسك الحج.

ظهرت منذ أكثر من قرن ونصف القرن في لندن ظواهر روحية. أدهشت العالم المتحضر علمياً وثقافياً، فتبنى هذه الظواهر لفيفٌ من العلماء والفلاسفة؛ للكشف عن صحة هذه الظواهر، فأخضعوها للتجارب العلمية. ومنهم من قضى ثلاثين عاماً مجرياً صدق هذه الظواهر، إلى أن ثبت لهم صحتها. فبدأت الصلات تتوثق بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بين عالم الروح وعالم الأشباح، وأصبحت هذه الصلات تقام في جمعيات معتمدة، وأنشئت كليات روحية متخصصة منها للعلاج، ومنها للثقافة الروحية، ومنها لتصحيح المفاهيم الكثيرة الخاطئة من تاريخ، وعلم عن طبيعة الأرض والكون. ويوجد مكتبات كثيرة في أنحاء أوربا تبيع الكتب الروحية. أَمْلَتْها أرواحٌ مرشدة عن طريق وسطاء لهم. وحصل دبلو بى ياتس الشاعر الإنجليزي المعروف على جائزة نوبل في الشعر الروحي. وزوجته كانت وسيطة مشهورة لجمعية روحية. كان عضواً بارزاً فيها عالم الرياضيات الفيلسوف المشهور برتراند راسل، والدكتور فهمي فوزي أستاذ الأدب الإنجليزي جامعة عين شمس في الستينات.

أما في الشرق فقد رفضت هذه الرسالة الروحية المنتشرة في الغرب، وحرم أبناء الشرق من الإفادة طبياً وعلمياً وروحياً منها. وقد اطّلع على هذه الرسالة الروحية في أوربا علماء وأساتذة من الشرق. منهم الدكتور رؤوف عبيد أستاذ قانون بجامعة القاهرة وكتب بأمانة عدة مجلدات فيها كل ما يتعلق بهذه الرسالة الروحية في أوربا.

مدعماً كتاباته بصـور الأجهزة التي اخترعها العلماء مسـتعينين بالأرواح في شتى المجالات، للكشـف عن لون هالة الإنسان لتحديد مدى رقيه الروحي، وكذلك رؤية الأجسـاد المختلفة التي يتسـربل بها الإنسان، والمتداخلة مع جسـده المادي ووظيفة كل منها، وسـبب تواجدها في وجوده على الأرض، والكشـف عن أطياف وأشـعة كثيرة تخرج من الإنسان، وأخرى يجذبها إليه وتؤثر فيه، وعلوم أخرى كثيرة لا يتسـع المجال لذكرها. وهذه المجلدات للدكتور رؤوف عبيد موجودة في كتاب تحت عنوان " الإنسان روح لا جسـد ".

تواجد هذه الرسـالة في الغرب دليل واضـح عل احترام الغرب لما أودع الله فيهم من نور العقل، ونجاح تفاعله مع الطبيعة ليخرج منها ما ينفع الناس من قوانين وأسـرار كامنة فيها. ولكننا في الشـرق اكتفينا باستيراد كل ما هو مادي وعلمي وعقلي، ولو أنصـفنا وصـدقنا مع أنفسـنا استوردنا العلوم الروحية أيضاً. وذكري لهذه الرسـالة الروحية هو لأنها جاءت مواكبـة للانفجار المعرفي الذي بدأ في بدايات القرن العشـرين، وأتت ثماره وتطبيـقاته في النصـف الثاني من القرن العشـرين. وبدأ بنظريات العالم ألبرت أينشـتين الذي نقل العلم من النظرة النيوتينية إلى النظرة الكونية بنظرية الطاقة والنسـبية الخاصة والعامة. فلم لا نتجـه إلى طاقاتنا الكامنة فينا، بتسـليط الفكر عليها، بالتأمل الصـادق والجـاد العميق، اسـتجابة وتمشـياً مع الانفجـار المعرفي الذي اسـتفاد منه الغرب، ونكف عن اسـتيراد ما يمكن أن نصـنعه بأيدينا، وما يمكن أن نغوص فيه بفكرنا، ونصـدر علوماً مادية، وثقافة روحية، كما كنا نفعل في قديم.

ورسالة الاتصال الروحي هو أسلوب من أساليب اتصال غيب الإنسان بشهادته، عن طريق اتصال أرواح مستنيرة حية طليقة تتصل بأهل الأرض، وأهل الأرض أرواح مقيدة في أجساد مادية تحجب عنها حقيقة معناها. ومن باب الرحمة تتصل بنا هذه الأرواح الطليقة لتنقل لنا تجاربهم ورؤيتهم؛ لنتطور بصورة سليمة، يقينية، وذلك بتوعيتنا بحقيقة ما بين أيدينا من كنوز معرفية ودينية. والشق الثاني لهذا الاتصال هو لنعلم عن الكون، وعن رحلتنا بعد انطلاقنا من مجال وذبذبة هذه الأرض.

وهناك نماذج لرموز وأعلام كثيرة لا تخلو الأرض منهم يمثلون جانب الرحمة لمن يريد الرحمة لوجوده، فهم امتداد متواصل لا ينقطع تواجدهم عن الأرض أبداً " مثل آل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك ". فإمام المتقين علي ابن أبي طالب هو وبنوه وذريته يمثلون هذا الامتداد، ولمن أراد أن يتحقق من ذلك عليه أن يقرأ خطبة السيد الإمام على في كتاب " الإنسان الكامل في الإسلام " للدكتور عبد الرحمن بدوي. وفي أماكن متفرقة من العالم هناك كثيرون يمثلون هذا الجانب الروحي مثل إيمانويل كانت في ألمانيا، وتولستوي في روسيا، وفي الهند بابا سوان سنج جى، وكرشنا موتى، وراما شراكا، وغيرهم كثيرون، يعرفون لمن يطلبوهم " إن لله ملائكة سوَّاحون في الأرض يجمعون الأهل بأهلهم " ومن عالم الروح السيد سلفر برش أصبح له تأثير كبير، وظهر وتكلم في عدة دوائر روحية في أنحاء العالم، وله ما يقرب من ست كتب أو أكثر توزع في أوربا وفي أنحاء العالم. وكتبه تذخر بثقافة روحية

عالية. وهو يعمل من أجل السـلام والخير، ودينه الخدمة كما ذكر السـيد غاندي، وغيره كثيرون.

وهذا الانفتـاح الروحي سـواء أتانا من الأحيـاء المسـتنيرين الذين يعيشـون بين ظهرانينا، أو من أرواح يتصلون بنا يرشـدوننا خيراً لأنفسـنا ولعالمنا.. هذا الانفتـاح نصر عظيم، ورحمة واسـعة، نسـأل الله أن ننهل منه لتطوير وإظهار وجودنا الأعلى الكامن فينا " وتحسـب أنك جرم صـغير وفيك انطوى العالم الأكبر ".



الفصل الثاني

نظرتنا إلى الآخر

المراجع:

- التجربة الدينية للجنس البشري .. " لمؤرخ الأديان البريطاني نينيان سمارت
- قصة الأديان .. " لسليمان مظهر"
- فلسفة اليوجا .. " للمعلم الروحي الهندي راما شراكا"
- ومن الواقع الحضاري والثقافي المعاصر.

يُصِرُّ القائمون على العلوم الدينية على التمسك بظاهر اللفظ. وما كان يدور من أحداث وأقوال في القرن الهجري الأول. ويؤكدون على صدق ما ينقلونه بشريط عنعنة طال أو قصر. ويضفون هالة من القداسة على حالهم بأنهم ناقلون وليسوا مبتدعين. وإذا فسَّروا النصوص أو الأحاديث أو أي معنى متصل بالدين، فهم ينقلون تفسير فلان الذي كان يعيش في زمن بعيد عنا. وإذا اضطروا للاجتهاد فيسَطِّحون الأمور ويُبَسِّطونها حتى يمكن سياسة العقول. هذا إذا لم يجدوا عند الأقدمين تفسيراً.

هؤلاء الأقدمون اجتهدوا بكل ما لديهم من العلوم والمعارف التي كانت سائدة في ذلك الزمان الذي عاشوا فيه. والنصوص صالحة لكل زمان إذا أعمل الإنسان عقله فيها. وتعامل معها من واقع الحال. والنص له عدة وجوه. ويؤخذ بالوجه الذي يناسب الواقع. "إن الدين لواقع ". "تَفَكُّر ساعة خير من عبادة عام ". " العقل أصل ديني". فلماذا نلجأ لعقل كانت معارفه وعلومه محدودة. ونلاحظ أنهم حصروا اهتمامهم بما لا يزيد عن ١٥٠ آية التي تعرضت

لأحــكام الشــريعة. أما النصــوص التي مســت القلوب فأحيتها، وغزت العقول المتأملة المتدبرة المفكـرة فأنارتها.. ألا وهى النصـوص التي تناولت قضـايا العــقيدة والإيمان، وكيـف يكون ســلوك الإنسان ليقوى إيمانه. ويطور فهـمه في عقـيدته حتى يرتقي بسلوكه إلى معناه الإنساني الراقي الذي عاشــه ســيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – هو وذريته. ويقدمــها هدية وكرماً ورحمة لكل طالب صــادق " أنا رحمة مهـداة "، " ما أعطيته فلأمتي "، " أحبوني بحببكم الله لكم من الله ما لي، " وكل شـيء أحـصـيناه في إمـام مبـيــن ".

وإذا تعرضــوا لديانات أخرى نعتوها بالرســالات الأرضــية، أو رفضــوها كدين. ويقولون أن أهل الأرض جميعاً يجب أن يكونوا مســلمين بنص الآية " إن الدين عند الله الإسلام "، وأيضــــاً

" ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يتقبل منه "، وســوف أرجع إلى المعنى القريب من الحق والحقيقة لهاتين الآيتين، بعد أن نســتعرض بعضــاً من الأصــول الجوهــرية لعدد من الأديــان المعروفة لتاريخــنا، والتركيز ســيكون عل العقيدة الأســاســية كجوهر الدين لنقف على التطـابق في جوهر جميع الأديــان، وسوف نلاحظ أنه لا يوجد خلاف في المعاني بين دين وآخر. أما المناســك في كل دين فهي تعبر عن حقيقة الدين. فهي مجــرد إشارات ورموز لمعاني جوهرية، وليســت هي الجوهر أو الحقـيقة، لذلك فهي متغيرة متـنوعة في كل دين " لكل جعلنا منكم شــرعة ومنــهاجاً ".

وهذه ترجمة لجوهر بعض الديانات من كتاب" التجربة الدينية

للجنس البشرى " وباقي المراجع لنعرف أنها رسالة واحدة من حيث المعنى، تتجدد بصور مختلفة من أساليب ولغات متعددة.

<u>الديانة الجينية:</u> (٧ آلاف سنة قبل الميلاد)

هدف الدين هو الرقى بالعالم، وتحقيق عزلة مطمئنة تعلو على اهتمامات البشر. والمعرفة هي مفتاح الخلاص. إنها التعارف التجريبي لمجال الروح، والطبيعة الداخلية للوجود (تداريب روحية تكشف عن المجالات الروحية للإنسان في داخله)، ومشكلة الإنسان في جوهرها ليست محصورة في الخطيئة . بل في الجهل الروحي (جهل الإنسان بكل معانيه الروحية). والحقيقة محجوبة عن رؤية الإنسان؛ لانغماسه في هذا العالم، وبجهله الروحي يظل مرتبطاً بهذا العالم

(ذبذبته والتردد الموجي لوجوده لا يتعد المجال الأثيري للأرض). ويعتقد الجيني أن كل إنسان عليم من حيث المبدأ (فطرة الله فيه) ... ولكن في الحقيقة أن الغالبية العظمى محجوبة عن المعرفة الكاملة بكَرْمَاهم(كل أفعال الإنسان على هذه الأرض)، التي تقف أمام الروح.

أتباع الديانة يؤمنون بالجيناس أي " الآحاد المنتصرون " وهم معلمون كبار، كسبوا لاتباعهم طريق الخلاص. منهم المعلم مهافيرا، يرجع إليه إحياء وإصلاح العقيدة القديمة. وهم صانعوا المعبر الذي يمكن المؤمن من عبور تيار الوجود إلى الشاطئ الآخر، إلى الحرية.. إلى النرفانا. (قيام روحي عال).

الديانة الهنـــدوســـية: (منتصــف الألفية الثانية قبل الميلاد)
عبَّرت عن نفســها بمفاهيم الكرما والنرفانا. وأســلوبها اليوجي.. وهو تدريب العقل والجسـد خلال وسـائل التقشـف. والتحكم الجسدي. وأسـاليب التأمل.

هندوســية العصـور الوسـطى: هي عصـور الفلسـفة والتقوى.
إنها أشــكال من الفيدنتا. والفدينتا هي المدرســة التي حاولت شــرح لاهوت الكتابات الفيدية. ومن أبرز ممثلي هذه الديانة **المعلم شــنكارا:** يقول بفكرة أن العناصــر الخالدة داخل الإنسان وداخل المطلق المقدس واحدة. (لأنه انبثق منه. وفى رحلة شـاقة راجع إليه)، وأن هناك كائناً ســرمدياً واحد فقط. وأنه لا يوجد أرواح منفصـلة (خلقناكم من نفس واحدة). أو نفوس خالدة مســكونة بكائـنات حية مخـتلفة. بل هي روح واحد. باعثة الحياة فيهم جميعا. والكائن السرمدي وحده هو الحــق. وأن عالم التجربة العادية وهم. والكون وهم كبير. (باعتباره نموذج نتعلم روحياً من خلاله. وهو دال على الحقيقة. وليس الحقيقة). والتحرر أو الخلاص يأتي عندما يتحقق الإنسان بتجربة التوحد مع الكائن الواحد. (نظرية التوحيد والحلول عند المتصـوفة المســلمون)

الهندوســية الحديثة:
ويمثلها المعلم راما شراكا يقول: المادة ما هي إلا طاقة كثيفة. (نظرية الطاقة لأينشــتين) وكذلك الطاقة ما هي إلا عقل كثيف. وأن العقل في أعلى درجات صــفائه يقترب كيانه من كيان الروح التي انبثق عنها. وكلما ارتقى وعى الإنسان واتســع تتفتح روحه.

وبإشراق نور الروح على العقل ازداد فهمه وتصوره. ولكن لا يدرك المطلق إلا المطلق نفسه. وعلى هذا فالسِرُّ الأعظم لا كاشف له في عقل من العقول المحدودة، ولا يدركه إلا هو. وأن ازدياد الوعي يجعلنا أقرب إلى الحقيقة. وكلما سقط حجاب ازددنا قربا وازدادت الحقيقة اقترابا، وما كنا نطالب بالإيمان به من غير بحث أو تفكير؛ لأنه فوق مستوى العقل البشري، وتنجلي الكثير من ألغازه تحت ضوء أشعة الروح التي تنير السبيل أمام القوة العاقلة، وتمكنها من تمييز الأشياء، حيث تخف كثافة الحجب. أما الروح – النفس الحقيقية أو النفس العليا – فإنها تعلم، أنها تعرف المطلق، وما عند المطلق – وعندما تنحسر عن الإنسان الحجب جميعا، حتى العقل الروحي نفسه، وحين لا يبقى من الإنسان إلا روحه..عندما يدرك الإنسان أن قوتها هي كل شيء.. عندها لا يكون الإنسان أنسانا، إذ يصبح روحا عادت إلى بارئها.

التراث الديني في اليابان والصين:

تتكون الديانة الصينية من ثلاث مصادر رئيسية: الكونفوشيسية وتمثل فكر وتقوى الصينيين. والطاوية قدمت التفسير المعنوي للعالم. ثم البوذية (في القرن الأول الميلادي) التي انتقلت من الصين إلى اليابان.

كنفشيوس: (القرن السادس قبل الميلاد)

أرسى قواعد السمة الأخلاقية الراقية للحضارة الصينية، وأخذت طابعها منه. تحمل تعاليمه معنى اللياقة والذوق والأدب والاحترام. كان ينشد تشكيل المجتمع عن طريق بناء أسرة خيرة.. وكان

قلقــه الدائم في حالة تحول الناس إلى أداء المناســك الدينية كبديل للطريق. (بدون فهم ما تشــير إليه من معاني الطريق ألا وهي الرقي الروحي والحقي).

وفى عبارة مجملة ترسـم خطوات الطريق الذي يقصـده أي سـالك صـادق يكشـف عن المقامـات التي مر بها حتى أصبح إنسانا حيا مسـتنيرا يقول: كنت في الخامسـة عشـر من عمري مُكَبّاً على العلم (مرحلة اكتشـاف المعرفة). وفي الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع (وحّـدّ وجـهته). وفي الأربـعين زالت عني شكوكي (جاءه اليقين). وفي الخمسين عرفت أوامر السـماء (ترنم مع قانون الحق والحياة). وفى السـتين كانت أذني عضواً طيعاً لتلك الحقيقة (أصـبح كياناً حياً منسـجماً مع الحقيقة). وفى السـبعين كان في وسـعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدى بي ذلك إلى تنكب طريق العدل والصواب (أتته الحكمة، والحكمة روح العدل ومصباح الصـواب)

<u>منشـيس:</u> خليفة كنفشـيوس يقول:

يسـتطيع الإنسان أن يحصـل عل معرفة العالم المنظـور وعالم الغيب بالنظر داخله.. في طبيعته الخاصـة، وأن الكون في طاعة قانون أخلاقي، وهو الطريق إلى السـماء (السـماء هي سـمو الإنسان في مرتقاه الروحي) وطالما أن الإنسان لديه إدراك بأن الخير فطرى في داخله، وينعكس البناء الكوني بصـورة مصـغرة في داخله (وتحسـب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر) فبانعكاس الإنسان داخله يحصـل علىالمعرفة.

البوذية: ٥٦٣ قبل الميلاد في نيبال.

أبرز ما فيها هو طريق بوذا النبيل ذو الثماني شعب وهي: الآراء السديدة، والطموحات الحميدة، والحديث الصادق، والسلوك المستقيم، الرزق الحلال، السعي الحق، الاكتراث الصادق، والتأمل الصحيح. والمتعبد لا يسعه إلا أن يشعر بنقصه حين يجابه المجد المقدس الذي يكتنفه من الكائن الذي يعبده. ويدرك أن خلاصه لا يأتي من مجاهداته الناقصة، ولكن من رحمة الله. وفي الإمكان، وعن طريق اتباع بوذا والتكريس له، والوصول بالمتأمل للبصيرة النافية للإثنينية، يستطيع الفرد أن يصعد من الحياة الأرضية إلى الوجود السماوي، ومن الوجود السماوي إلى وحدة مع المطلق. وبهذا فإن الشخص الذي فهم النصوص بإيمان فقد غدا قريباً من بوذا، ومن الخلاص. وبنطق آية واحدة بإيمان يتمكن المتعبد من الخلاص النهائي بفضل بوذا (أو أي نبي). ومن الواجب على الإنسان أن يتخطى الكلمات. (إلى المعنى المراد)

الديانات اليابانية: الشنتو ١٠٠٠ق م

ديانة روحية ومعناها " طريق الآلهة " واسم كتابهم المقدس "كوجيكي " ومحور اعتقادهم لأزمان طويلة كان في آلهة الشمس "أماتيراسو" . اليابانيون حسب تراثهم الأسطوري ينحدرون من "الكامي" ..والكامي معناها الحرفي هو الكائنات الراقية. وتتلخص الديانة في التمسك بالطهارة، ويحصل عليها الإنسان بالاغتسال المنسكي. ومثالية الطهارة يرمز لها بالمرآة، والتي لها رباط علوي فوق الجميع بالإلهة اماتيراسو، والمرآة تعكس بجلاء، وبهذا

فإنها تمثل الأمانة والإخلاص. وهذه العقـيدة تتمثل في البسـاطة والوقار. هذه العقيدة تربط بين المناسـك الدينية والأخلاق، والحيـاة الاجـتماعية. أما البوذية أصـبحت الديانة الرسـمية في اليابان في أواخر القرن السـادس الميلادي.

من هنا نرى أن ديانات الشـرق الأقصى التي ظهرت في الصـين والهـند واليابان تؤكد على أن الطريق إلى مشـاهدة المعاني الحقية داخل الإنسـان يكرم بها عن طريق الزهد، والفكر المسـتقيم، ورياضـات روحية تؤدى إلى طهارة القلب، مع الحرص على تلقي العلم، حتى تأتي المعرفة والحكمة تأتي الإنسـان بفضل الله، ثم الحب هو سـبيل الوحدة مع الحق المنشـود.

الديانات المصـرية:

شـخص الفرعون هو المحور السياسـي والديني للثقافة المصـرية، والمدخل للنظـام الاجتماعي . من الناحية الدينية ينظر إلى الفرعون كنقطة التقاء بين عالم الغيب والشـهادة، ونقطة اتصـال بين السـماء والأرض، وحقه الملكي المقدس هو ضمان الاسـتقرار السياسـي.. والأسـاطير وعقائد آلهة الشـمس احتلت مسـاحة كبيرة، حيث الشـمس في شـدة توهـجها وخصـوبتها الحميدة تسـيطر على أرض النيل، وتسـيطر آلهة الشـمس عل الخيـال الديني للشـعب المصري.

إخناتون والتوحـيد: ١٤٠٠ ق م

هو أمنحتب الرابع. وإخنـاتون تعني " المجد لآتون " حاول أن يقدم العبادة الوحيدة للإله آتون التي يرمز لها بقرص الشـمس، واعتبرها

الخالق لكل الأشـياء، وعقيدة إخناتون في الإله الواحد يعبر عنها في مقتطفات من هذه الأنشودة:

إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك - ومصور دون أن تصور

منقطع القرين في صفاته مخترق الأبدية.

مرشد الملايين إلى السبل

وأيضاً:

أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم

أنت أم نافعة للآلهة والبشر- وراع شجاع يسوق ماشيته

وأنت ملجأها ومانحها قوتها...

وفي وحي الملك يقول:

ليس هناك واحدا آخر يعرفك إلا ابنك إخناتون

لقد جعلته عليماً بمقاصدك وبقوتك

نلاحظ أن هناك تطابق بين الديانة اليابانية والمصرية من حيث أنهما اتخذتا الشمس رمزا ودليلا على معنى الحقيقة.

<u>والزرادشتية الإيرانية:</u> الكتاب المقدس " الأفيستا " ٨٠٠ ق م

آمن الإيرانيون بديانته من القرن السادس ق م إلى القرن السابع الميلادي.

زرادشت: يقول: اكشف لي عن أسرار معرفتك..كي تساعدني على نشر دينك.

أيها الإله الواحد..الحكيم..يا أهورا مازدا. (معناها الرب الحكيم)

أحس بأنه دعا ليبشر بإيمان نقى من تعدد الآلهة المنتشر في ذلك الوقت. والنار عنده ليست فقط لظهور الإله. ولكن تمثل رمز الطهارة، وعبادة الإله أهورا ماذدا. والرجل الصالح عنده هو الذي يرعى الماشية، ويزرع الأرض في سلام، مراعيا حسن الجوار..هو الإنسان المستقيم الذي يقدر الحق ويتوق إليه بشوق عظيم. والصراع بين الخير والشر في الكون ينعكس في الصراع داخل قلب الإنسان.

الديانات الإغريقية:

يمثل هذه الديانات كثيرون اخترنا منهم أفلاطون وأفلوطين

الحكيم أفلاطون: ٥٢٧ ق م

أدرك أن هناك مملكة خالدة خارج الزمن، تقع فيما وراء الحواس (الغيب) وتسمو فى شكل نموذج الخير، مانحة وحدة وقيمة للنماذج الأدنى (ترسل الرسل والرسالات) وفي كتبه ذكر شيئاً عن الصانع الأعلى.

أفلوطين: ٢٠٣ —٢٧٠ م

يقول أن الكائن المقدس هو ثالوث أزلي (الواحد - منه انبعثت فطرة الله - ومن فطرة الله انبثقت الروح) وهى القوة الخالقة، منها استمد الكون المادي وجوده.

والترقي في طريق أفلوطين هو التدريب الروحي، واستقامة النفس، تحدث حينما تكون كل الأفكار والتعليل والتصور (الأحوال النفسية، ومرحلة سيطرة النفس على العقل) تختفي من الروح، وتكون مهيأة لرؤية الواحد. من هنا كان عليها أن تعود

طالما استعادت لباسها الأخلاقي، مع أنه في النهاية يستطيع المجاهد الصادق حين يتخطى عقبة الموت

(موتوا قبل أن تموتوا) يستمتع بمشاهدة الخلود. المشاهدة الحقية هي أن المتأمل والواحد في هذه التجربة يصبحان واحدا (التوحيد عند الصوفية المسلمون). ويصف أفلوطين هذا القيام المعنوي بأنه " هروب المتوحد إلى المتفرّد " (المتوحد هو الإنسان الذي وحّد وجوده واتجه بكله إلى أعلاه..إلى المتفرد). انه رجوع الأزلي في الإنسان إلى الواحد الذي انبثق منه. وأفلوطين أبعد ما يكون عن فكرة نبذ العالم.

<u>الديانة اليهودية: سيدنا إبراهيم:</u> ٢٠٠٠ق م

الدين اليهودي شفوي، لم يدون إلا في القرن ٩ م

إن منسك الفداء الذي سنه سيدنا إبراهيم (عليه السلام) – كما فهمته من القرآن الكريم - يشير إلى أن حيوان الإنسان موجود في ذاته، ويجب أن يكون (حيوان الإنسان) فداء الإنسان بمعناه في حياته، فلا بد من قتل حيوان ذاتك، التي تسجن، في مادي قيامك، لتقوم بروح معناك لإنسانك.

<u>سيدنا موسى:</u> القرن ١٣ ق م

يقول: إن طلبتم من هناك الرب إلهكم ملتمسينه من كل قلوبكم ونفوسكم فإنكم تجدونه. وأيضا: فالآن أيها الإسرائيليون ماذا يطلب منكم الرب إلهكم سوى أن تتقوه، وتسلكوا في كل طرقه، وتحبوه، وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل نفوسكم.

<u>فيلو:</u> ٢٠ق م

دمج اليهودية بالحضارة الإغريقية. يقول: إن المتعبد الصادق ينظر إلى الداخل، إلى روحه وما بعدها. وفى هذا الحال الذي لا يوصف يدخل في تجربة يصعب التعبير عنها، وهى تجربة مباركة. أرقى حياة هي حياة التأمل، وفيها يتذوق الإنسان الحضور الإلهي. والإله نفسه كائن أعلى (بل الرفيق الأعلى)، يجعل نفسه معروفا للإنسان من خلال كلماته (رسله) وعن طريق إدراكه يكون الإنسان في صلة روحية مع الكائن المقدس، ويمكن أن يحسه في تأملاته، ولكن يتطلب ذلك فضلا من الإله.

إسرائيل بعل شم: القرن ١٨

عاش حياة بسيطة مقدسة. وهب حياته للانجذاب الروحي. والمثل الأعلى عنده هو الشخص المتحلي بالاستقامة الكاملة، وينقل فضل الإله للإنسان عن طريقه (المعلم الروحي) وعن طريقه فقط يستطيع الإنسان أن يكون في وحدة كاملة مع الكائن المقدس. ومثل الهندوسية..الاستنارة القدسية تهذب الإنسان من خلال قوة شفاعة المعلم. ومثل مبادئ الزِنْ الاستنارة تنقل مباشرة من المعلم إلى المريد. وترسخ الفضائل في الإنسان عن طريق الحاسديم (الأتقياء) حيث يقوم الإنسان ناكرا لذاته متواضعاً محباً.

نلاحظ أن الديانات الإغريقية واليهودية تقول بأن هناك كائناً مقدساً يعرف لطالب الحق، ثم يبدأ الطريق معه إلى داخل الإنسان، ويتلاقى معه حين يستقيم ويصدق في التطهر وطلب العلم

والمعرفة بالتأمل، ثم يتم له القرب أو التلاقي أو الوحدة معه بفضله وكرمه.

الديانة المسيحية:

يقول السيد المسيح: ولا تدعوا أحدا على الأرض أباً لكم؛ لأن أباكم واحد، وهو الأب الذي في السموات. وأيضاً: أنا في الآب والآب في. ويقول: أنا الحق أنا الرب أنا الحياة أنا القيامة. وأيضاً: لا دينونة اليوم على من دخل في قلب يسوع. هذه أربع عبارات مختارة من أقوال السيد المسيح.

العبارة الأولى: تدعو إلى الإيمان بالوحدانية.

الثانية: توضح قيام المسيح في معية الله.

الثالثة والرابعة: تبين قيامه على الأرض وجها لأعلاه وبيتا يقصد.. بيت هو قلب حي، يحيى كل من دخله بفضل الله وكرمه.

قدسية بولس:

يؤكد على الوحدة مع السيد المسيح، وأن المسيح يسكن بداخلنا (حيث أنه كلمة الله وروح منه، " أزرع كلمة الله في أرض ناسوتك ") وأن الوحدة مع الرب تتحكم فيه من الداخل، وتجعل الطريق واضحاً أمام حياة الروح، حيث تستطيع أن تعمل عن طريق فضل المخلص الرب يسوع. وعن طريق الوحدة معه يستطيع الإنسان أن يطرح نفسه القديمة، ويرتفع فوق حياة الجسد إلى حياة الروح، ويتغير سلوكه من الأعماق، ويأتي أفعاله بكل حب. والخلاص عنده هو تصميمه عل الحياة المقدسة في هذا العالم حيث الجسد ومن بداخله يصيران معبدا للروح القدس.

لاهـوت القديـس أوجستين: ٣٥٤ م

يقول: النمـاذج الأصـلية الخالـدة تحتـويها طبيعـة الإله. وبمعـرفة القوانـين نعـرف الإله. ومعـرفة الحـقيـقة هي معـرفة الإله. وربط التثـليث بقدرات ثلاث تعمل داخل الإنسان وهي الذاكـرة، والفـهم، والإرادة. وأكد على أن حب الإله يعمل داخل التثـليث. وإنها مثل الحب والمحبوب، والحب الذي يربطـهم سـويا. وأن الروح انبثـقت من كل من الأب ومن الابن بنسـق أبدى. وفي ترجـمته الذاتية يقول في اعترافـاته: دخـلت إلى أعمـاق نفسي، وكنت أنت مرشدي، وشـاهدت بعين روحي، فوق عقلي النـور، وذلك الذي يعـرفه يعـرف الخـلود.

المذاهب الإنسانية:

لقد ازداد التيـار الفكري المضـاد للدين من قبل الإنسان المعاصـر من ثلاثة محـاور.

الأول: ظهـر اتجـاه إنساني حـر أثـر بصـورة جوهـرية على الناطـقين بالانجـليزية في أنحـاء العـالم. وهذا التيـار له جذوره في مذهـب الشـك الذي انتشـر في القرن ١٨ . وقد وجد دافـعا قويا من الجـدل الديني القائم في القرن ١٩ .

الثاني: تنامي الإلحاد عند المتكـلمين الألمـان في القرن ١٩ متـمثلا في كتابات فيرباك وماركس ونيتشـه. وظـهرت الشـيوعـية الملحـدة نتيجـة لذلك، والتي أصـبحت العقـيدة الرسـمية لنصـف سـكان العالم.

الثالث: ظهـور الحركة الفلسـفية المعروفة بالوجـودية، والتي

كان لها أصول مسيحية من خلال أعمال كيركجارد. والتي غذّت بداخلها نمطا جديدا من الإلحاد. واستمر تأثيره منذ الحرب العالمية الثانية.

إيمانويل كانت: القرن ١٨ م

حاول تقديم فهم للدين من البعد الأخلاقي. يقول: أن حياة السيد المسيح هي نموذج أخلاقي. وأساسيات الدين تقوم على الإيمان بالله. والحرية الأخلاقية. والخلود. ويقول: أن علينا التزام نحو تحقيق فضيلة كاملة. ولكن حياتنا القصيرة لا تعطينا الفرصة للتقدم نحو هذه الحالة المثالية. مما يستلزم حياة أخرى كفرصة لاستكمال مصيرنا الأخلاقي. (كل من ديانة السيخ والهندوسية والبوذية والطاوية والجينية والشنتو أكدت على عودة الحياة لاستكمال النمو الحقي للإنسان) . وهو رائد حركة التنوير. وقد واءم بين الدين ومتطلبات العقل معبراً عن ذلك في فلسفته.

هيجل: القرن ١٨، ١٩

ما نعتبره عالم مادي هو في حقيقة الأمر نتاج العقل. ما هو معقول فهو حقيقي، وما هو حقيقي معقول.

كيركجارد: ١٨١٣-١٨٥٥

حاول هيجل أن يصل إلى الكائن المقدس من أسفل. فقد تصور أنه من الممكن أن نبدأ من العقل. وننسج منه فكرة الإله. ولكن كيركجارد يرى أن إله المسيحية مختلف تماما. والفلسفة لا تستطيع أن تأخذك إليه. وعلى أعلى تقدير تستطيع أن تأخذك

إلى نقطة حيث يظهـر العقل عاجزا تماما كمـصـدر بصـيرة نافـذة إلى الله. الوحي أو الرسـالة – وهى نوع من إعلان الإله عن نفسـه للإنسان – هي هبـة الله الخالصـة. وليس شـيئا في اسـتطاعة القوى البشـرية أن تحـقـقه. وبهذا فإن قوة العقل لا تسـتطيع أن تكشـف عن الله. ونحن لا نسـتطيع أن نبلغ ما هو كنـه الله، ولكن نسـتطيع فقط أن نتـلاقى معه.

فيـرباك: القرن ١٩

النتيجـة الحتميـة بأن نجعـل الإله بشـراً هي أن نسـلم بأن الإله المطـلق ليس أكثر من كونه تدبير رغبـات ومثاليـات العقل. والمرحلة الأخيرة في عملية تأنيـس الإله يجب أن تقوم علـى التسـليم بأن موضـوع الدين هو الإنسان نفسـه. وهذا يتمثل في إدراك الإنسان نفسـه.

هنا فيرباك أطلق العنـان للعقل كطـاقة خلاقة تدبر رغبـات، وتتوهـم مثاليـات، وحين تفشـل طاقة العقل في تصـور أو إدراك كُنه ما هو غيب وبعيد الإدراك عن أدواتها الحسـية تحول هذه المعاني الغيـبية إلى أن تجـعلها مشـابهة لها. وهذا هو معنى التأنيس. أن تجـعله إنساً. (من الإنس)

كل من المركسـية والحركة الإنسانية المتـحررة بطريقـتيهما المختـلفتين أضـعفتا نسـيج الانتـماء الديني، ونجـحا في تربية نوع جـديد من الأفـراد بدون توجـهات دينـية، وكل من يتعلم الدين فهو خطر وشـرير. وعلى عكس ذلك نجد من يعلي من شـأن الدين، وأنه بمعـنوياته يعلو فوق الإصلاحات الاجتـماعية التي تروج للأخلاق الحمـيدة.

فيقول ماثيو أرنولد: القرن ١٩

عندما نرتفع بالأخلاقيات كجزء أعلى في الدين يترتب على ذلك أن الإيمان بالغيب يتلاشى ويصبح الدين مجرد قوة اجتماعية.
وظهر أيضا في القرن ١٩ إلى جانب هذا التيار الإلحادي قوة روحية يقينية كشفت عن ضحالة الفكر المادي، وأنه ليس الأداة الوحيدة للمعرفة، إنها الرسالة الروحية. وسنذكر بعضا مما كشفت للبشرية.

الدين الإسلامي:

الإسلام كفطرة هو المعرفة. هو كشف القناع عن معرفة الكائنات بكينونتها. أما الإسلام كعقيدة وكتاب فنحن نتابع إنسانا منا، رسولا من أنفسنا وعبدا من عباد الله بيننا، تواجد بيننا بذاته وصفاته، وما زال يتواجد بيننا بمصاحبيه ومتابعيهم، هو من نسميه محمداً، ومن يتصف عندنا برسول الله.

والرب مدرك في الإسلام في إدراك الإنسان المسلم لمعاني الإيمان تطرق قلبه وحسه وتشرق في وعيه وإدراكه، وتقوم في زكاة نفسه، وتحي قائم جوارحه وأحاسيسه على صورة مدركة عنده، ومن مصدر لا يجهله. إن الله عند المسلم له معارج يعرج فيها العارج إليه طلبا له حتى يلقاه. وهذه المعارج هم عباد الله، وأهل رشاده، أو آدم الخلق ومصابيح الحق، هونا على الأرض يمشون، وقلوب الخلق يطأون فيحيون. { يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي }، {وكل

شيء أحصيناه في إمام مبين }.

وفى الإسلام رموز ورواد أكثرهم من أهل البيت، ومنهم من آل إلى البيت. هم امتداد الرسالة. يسرون بأنوارهم في الناس الطالبين الصادقين في طلب الحق والحقيقة .فالإسلام في جوهره لا يختلف في دعوته وهديه عن أي دين آخر.

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أتى بلفظ (الله) وما لهذا الاسم من أشارات ومعاني حقية كثيرة.

وقد اخترنا ثلاثة حققوا لأنفسهم المعاني الحقية، ونشروها بين الناس بشكل واضح مثل رواد البوذية والهندوسية.

ابن عربي: ١١٦٥ — ١٢٤٠

طريق ابن عربي مرتبط باعتقاده بإلوهية الكون (حيث أن المكوّن ساري في كونه) ونظر إلى العالم كانعكاس ظاهر للحقيقة المقدسة (الظاهر مرآة الباطن) ويرى أن الكائنات البشرية انبعثت من الجوهر المقدس، وخلق الناس لأنها رغبته أن يعرف. والصوفي الكامل الذي حقق لنفسه مكانة المطلق المقدس (قام في التوحيد) هو الذي عكس في شخصه البناء الداخلي للكون. لا يوجد بحق إلا وجود الله..ووجود كل الأشياء المخلوقة هي وجوده. وحين يكشف سر ذرة من الذرات، يعرف سر كل الأشياء المخلوقة (تماثل الحركة داخل الذرة مع حركة النجم وتوابعه) ويكشف كل من الداخل والخارج. وأنت لا ترى في هذا العالم أو العالم الآخر أي شيء إلى جانب الله.

أبو يزيد البسطامي : القرن التاسع م

يرى وحدته مع الله من خلال تجربته المعرفية، طوّر فكرة الفناء، وهي تجربة صوفية.. أن الصوفي يفنى عن العالم المادي أو عن نفسه ويذوب في الله. والتحكم في النفس عن طريق التقشف وممارسة التأمل، يكون نتيجته اختفاء حالة الوعي بفردية الإنسان منفصلا عن الله.

الحلاج: القرن العاشر م

طبّق فيما عرف في الصوفية بنظرية الحلول. وهو أنه في البدء خلق الله الإنسان على صورته لكي يكشف عن الصورة المقدسة بداخله. وعن طريق عمل الحب الإلهي يمكن أن يحصل على الوحدة مع الطبيعة المقدسة. هذه الوحدة تأتى عن طريق نزول الحق أو الحقيقة الخالقة لله في الروح، وبهذا يصبح الروح الآدمي ممتزجاً مع الروح القدس. عملية نزول الروح القدس إلى الروح تسمى الحلول.

الرسالة الروحية:

ومواصلة وامتداد للسادة الأئمة الذين أسميناهم بالصوفية، والتي كانت أساس رسالتهم هي كشف الحقيقة لطالبي الحق الذي يمثلونه، لأن وجودهم هو أداة صالحة لاستقبال فيوضات الله ونقلها إلى المؤمنين الصادقين {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} . ظهر في منتصف القرن ١٩ في أوربا رسالة روحية تعتبر امتدادا

ومواصلة لطريق المعرفة الحقة للسادة المتحققين في الله .
وأخذت أشكالاً ثلاثة:

ظواهر روحية:

لضعاف الإيمان بالروحية. وهى عبارة عن ظهور بعض المشاهد الحسية أثناء الجلسات. تقتضي من المشاهد التفكير والتأمل.

وقضايا علمية:

قابلة للبحث والتحليل والمناقشة والإدراك. وتتم عن طريق التعاون الوثيق بين العلماء والأطباء من الجانبين – الغيب والشهادة – وأثمرت هذه الجهود باختراعات كثيرة. وشفاء أمراض مستعصية. وأقيم لها كليات عملية روحية متخصصة.

وأمر ديني:

يتعلق بالعقائد ونفض الغبار عن جوهرها المختفي وراء المتوارث من الأقوال والأفعال مع تحريفه عن مواضعه من الاستعمال.
وأصبحت المعرفة الروحية في هذه المجالات الثلاث متاحة وميسرة عن طريق الكليات المتخصصة ومكتبات بها آلاف الكتب الروحية التي تشرح للإنسان ماهية قيامه على الأرض. وتوضح كل ما يتعلق برحلته بعد انتقاله من هذه الأرض. وهناك مجلدات تحت عنوان " الإنسان روح لا جسد " للدكتور رؤوف عبيد لمن أراد التعارف على هذه الرسالة.

بعد هذا العرض المختصر لبعض الأديان. والسادة المتحققين. والرسالات الإنسانية. والرسالة الروحية الحديثة. كمصادر للمعرفة الإنسانية التي تكشف للإنسان عما بداخله من حق

وكيف يصله، وينميه في الله أكبر، فعلى أي شيء يحارب الناس بعضهم بعضا، الذين يتصورون أنهم منتمون إلى دين ما، في الوقت الذي يقرأون فيه الآية: {لا نفرق بين أحد من رسله}. إنه الجهل الروحي، والتعصب الأعمى، وتحريف النصوص بفهمها على ما وقر في نفوسهم من رغبات وتطلعات قريبة من النفوس وبعيدة عن الحق والحقيقة.

{ إن الدين عند الله الإسلام } ، { ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يتقبل منه}. هذا قول حق، ولكن لا يتعارض مع { ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص}،

{ لا نفرق بين أحد من رسله} فالدين عند الله الإسلام..

الإسلام هو معنى يقوم فيه الإنسان، وليس مجرد أسم يعنون دينا. إنه التسليم الكامل للرسول رسول أي دين.

الآيات كثيرة ترسم الطريق القويم المختصر لطالب الحق منها: {ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} ، {يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}، {ألا تعلو عليّ وآتوني مسلمين}، {ربنا اجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك }. فهو الطلب الدائم والدعاء الذي لا يفتر للصلة برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والصلة القائمة على المحبة. إن قامت، تفتح بابا للرسول فيك ليعمل في اتجاه رقيك وإصلاح داخلك. وهذا لا يأتي إلا بالتسليم الكامل له "وسلموا تسليما". وهذا ينطبق على كل رسول، أو نبي، أو حكيم، أو معلم روحي، أو قديس، لأن كل الأديان تبلغ رسالة واحدة، جوهرها واحد ومن

طـبيعـتهـا الـتـواصـل والاســتـمـراريـة. فـهـي مـتـجـددة مـتـصــلـة مـنـتـشــرة فـي الأرض جـمـيـعـا " يـبـعـث الله عـلـى رأس كـل قـرن آدم يـجـدد لـلأمـة شــئـون ديـنـهـا ". " أهـل بـيـتـي فـيـكـم كـســفـيـنـة نـوح مـن ركـبـهـا نجـا ومـن تخـلـف عـنـهـا هـلـك ". ولـيـس هـنـاك أمـة مـخـتـارة. أو ديـن مـمـيـز عـن الآخـر. وإلا اخــتـلـت مـوازيـن الـعـدل. وحـاشـا لله أن يـحـدث هـذا " لا فـضـل لـعـربـي عـلـى أعـجـمـي إلا بـالـتـقـوى ". { اتـقـوا الله ويـعـلـمـكـم الله } بـالأسـلـوب الـذي يــراه فـي أي ديـن { لـكــل جـعــلـنـا مـنـكــم شــرعـة ومـنــهـاجـا }. {ومـا مـحـمـد إلا رســول قـد خـلـت مـن قـبـلـه الـرســل}.

فـلـم نـرفـض الآخـر تـعـصــبـا لمـا بـين أيـديـنـا. ولا نـفـقـه فـي ديـن الآخـر أي شــيء. ولا حـتـى فـي ديـنـنـا. لـعـدم الـغـوص فـيـه لـنـخـرج مـنـه الـكـنـوز والمـعـانـي الـكـثـيـرة. لأن كـل كـلـمـة فـي الـقـرآن لـهـا مـعـان كـثـيـرة. ونـحـن نـقـول " قـرآن كـريم " لأنـه حـقـا وصــدقـا يـكـرم كـل مــســتـويـات الـفـكـر إذا تـأمـل الـنـاس وتـدبـروا مـعـانـيـه الـلانـهــائـيـة. كـل كـلـمـة حـق قـيـلـت عـلـى هـذه الأرض مـن إنـسـان حـي مــســتـنـيـر. عـلـيـنـا أن نـتـأمـلـهـا بـقـلـوب صــافـيـة. وعـقـول مـتـأمـلـة. وضــمـائـر غـيـر مـتـحــيـزة. ونـفـوس مـطـمــئـنـة. لـتـضــيـف نـورا وحـيـاة لـوجـودنـا. ألـيـس كـل مـا قـدمـنـاه مـن ديـانـات يـهـدف إلـى إحـيـاء الـقـلـب وإنـارة الـعـقـل وتـزكـيـة الـنـفـس. والـطـريـق إلـى ذلـك هـو أن نـســلـم تـســلـيـمـا. ولـم ولـن يـحـرم إنـسـان صـادق فـي طـلـبـه ومحـب مـن الـولـوج لـداخـلـه لـيـشــاهـد ذلـك. فـي أي مـكـان عـلـى هـذه الأرض. مـنـذ أن وجـدت. وتـواجـد عـلـيـهـا الإنـسـان مـن هـذا الـنـور الإلـهـي " وجـعـلـنـا لـه – ولـكـل الـرســل فـي أي ديـن – نـورا يمـشــى بـه فـي الـنـاس " إنـه الـرســول شــاهـد الحـق. وقـائـم الحـق " أنـا الحـق مـن ربـكـم" لـه نـســلـم وبـه تـقـوم

الصلة. فالبوذي أو الهندوسي إذا لم يسلم لبوذا، أو من يمثله من الأحياء المستنيرين، فلن يكون بوذيا. من هنا نقول أن الإسلام معنى أساسي يقوم عليه طريق وسلوك أي طالب لله في أي دين.

ومن لم يسلم تسليما من المسلمين، فلن يكون مسلما إلا بشهادة الميلاد. فالإسلام ليس أسما يضاف للإنسان لمجرد أنه نطق بالشهادتين، أو صادفه ميلادا في بلد إسلامي، ولكن الإسلام معنى يكرم به الإنسان بفضل الله، إذا عرف كيف يسلم، وقام في التسليم الكامل. فعلى الإنسان أن يهيئ وجوده بمحاولة الصلة بأعلى، وجهاد نفسي مضن { يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه} ، مع تقوى الله في كل كبيرة وصغيرة، واحترام وحب كل من يشاركه في الإنسانية على هذه الأرض. بهذا يشاهد ويتلاقى مع معنى الحق فيه، بعون الحق عليه.

وبعد أن عرفنا جانبا واحدا من جوانب الإسلام والتسليم، أحب أن أؤكد أن رحمة الله واسعة، والكل قد جاء الأرض لهذا الغرض.. أن يكون مسلما، وهو تابع لأي دين، وهو سائر إليه عندما يتجه بصدق إلى نفسه: " أبدأ بنفسك " ، " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ألا وهو جهاد النفس". وسيعينك الله عليها إذا كنت صادقا في جهادك. وهنا يبرز السؤال: لماذا جعلها الله - أي النفس - عدواً للإنسان، ومطالباً أن يحاربها ؟ إنها باختصار: الكيان العارف بضروب كوكب الأرض ومسالكه، ولا يمكن العيش على الأرض بدون نفس. فهي التي تشعر بكل الأحاسيس الجسدية، من مأكل ومشرب ومأوى، وبها كل الصفات الحميدة والخبيثة،

وتطبعك إلى أي اتجاه إذا ملـكتها، وعرفت كل إمكانياتها " من عرف نفسـه فقد عرف ربه "

هل عرفـنا الآن كيف ننـظر للآخر ؟ وإذا كنت من الذين نجـحوا وسـائر في طريق الله، وقائم في كل هذه المعان التي ذكـرنا، فهل هذا يميـزك عن الآخر حتى ولو كان قيامه في أسـفل سـافلين؟ تذكـّـر إننا أخوة في الإنسانية، والدين المعاملة، ويوما ما سـيفيق إلى معنى الحق فيه.

فإذا أكرمك الله وأقامك في شـرف الخـدمة " خير الناس أنفعهم للناس "، وأخذت بيد أخيك إلى ما تحب وترضـاه لنفسـك " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسـه "، فهذا فضل من الله عليك وعليه، فإن لم تسـتطع، فادع له ولإخوانك في البشـرية أن يفيقوا ويشـهدوا معنى الحق فيهم كما شـهده رسـولنا الكريم:

"انعكس بصري في بصيرتي فرأيت من ليس كمثله شيء "

فمن يكون الآخر؟ إنه أنا وأنت { خلقناكم من نفس واحدة } وهل هناك آخر أقل منك ؟ فإذا كانت الإجابة بنعم، واختالك إحساس الأفضـلية والتميز دينا وعلما ومكـانة، فينطـبق عليك ما جاءني الآن من فكر وأنا أكتب هذه السـطور، صـغتها في كلمات تشـبه الشـعر، ولا أظن أني أرقى لمكانة أي شـاعر:

اللـــهـم ارحــمنا من تعـصب جاهـل
يعـمى عمـا بين يديــه، وبالآخر أجـهل
ناء عن الحــق فيه، وبالحق عليه أجهــل
ويتـيه بنفـس إماما جاهلا لمن هو أجهل

الفصل الثالث

ديانة السيخ

وإلى القارئ أقدم نموذجاً لديانة تعدل وتصحح نظرتنا إلى الآخر، لنعرف أن الرسالة واحدة من حيث المفهوم العام للدين، وكيف أن أي ديانة تعتمد في الأساس على إنسان حي مستنير، يصيغ هذه الرسالة الواحدة في كلمات من نور، تسري فيمن يتعرض لها " لله في أيام دهركم لنفحات فتعرضوا لها " بالأسلوب الذي يراه من مناسك وشرائع.

ديانة السيخ هي الديانة الخامسة في ترتيب الديانات على مستوى العالم. واخترتها كنموذج حي ظهرت لتعالج واقع مرير من صراع دام طويلاً، كان قائماً بين الهندوس والمسلمين في إقليم البنجاب شمال الهند. ومن رحمة الله بخلقه أرسل لهم رسولاً منهم ليدلهم ويرشدهم إلى معنى الحق فيهم عن طريق رسالته المتجددة. ظهر المعلم ناناك دف ليُنْه هذا الصراع مصحوباً بطاقة روحية هائلة، استطاع بها أن ينفذ إلى قلوب الهندوس والمسلمين، بإنشاء ديانة جديدة وهي ديانة السيخ، تضم المفاهيم والمعتقدات في كلتا الديانتين. وبقوة حضوره المقدس تحول الناس في إقليم البنجاب إلى الديانة الجديدة.

والمعلم الروحي في الهند يسمى جورو. كلمة جورو مكونة من مقطعين: جو تعني ظلام، و رو تعني نور. أي أن المعلم يأخذك من

الظلام إلى النور، أو من الجهل إلى الاستنارة. وجورو أيضاً تعني كلمة الله.

ظهرت هذه الديانة في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. والمعلم ناناك دف في دعوته لم يطلب من أهل البنجاب مسلمين كانوا أو هندوساً أن يتركوا دينهم، ولكنه طلب من المسلم أن يكون مسلما حقا، ومن الهندوسي أن يكون كذلك، وأن يعبدوا الواحد الأحد بكل خشوع وإخلاص ومحبة.

تجمع حوله كثيرون. وكانت له رحلات كثيرة لنشر رسالته، وكان يترك خلية من أتباعه في المكان الذي يتركه لينمُّوا المفاهيم التي غرسها المعلم ناناك دف فيهم. وتعاليمه صاغها في شكل ترانيم منظومة تنشد، تصاحبها موسيقى هندية قديمة. وجمعت هذه الترانيم عن طريق المعلم الخامس أرجان دف، حيث أرسل بعض أتباعه لجمع أوراق المعلمين الأربعة قبله، وكوَّن منها الكتاب المقدس للسيخ وهو " جورو جرانث صاحب " ومعناها كتاب السيد المعلم. ومدون به أكثر من ٥٠٠٠ ترنيمات. وترك فيها صفحات لم يدون فيها شيء؛ تركها للمعلمين اللاحقين عليه ليملئونها. والكتاب متاح للبشرية جمعاء من كل الأجناس، ولكل الأديان. وأصبح الكتاب هو المعلم المتاح للسيخ وللناس جميعا بعد وأثناء وجود المعلم العاشر. وإلى القارئ ترجمة بعض ما جاء في الكتاب المقدس نقلا من كتاب " فلسفة معلمي السيخ" .

يقول المعلم ناناك دف: يوجد إله واحد اسمه الحقيقة الأزلية الأبدية. والوصول إليه هو عن طريق فضل المعلم المستنير.

ويتساءل: كيف نكون جديرين بوصلته؟ .. كيف لنا طلب الحقيقة وإزالة الحواجز أو ما يحجبنا عنه بباطلنا؟ .. والإجابة هي بالتسليم الكامل لإرادته والمحبة، وليس بالتأمل العميق في سكون، أو الصيام، أو بجمع المال، ولا حتى بمئات الآلاف من الأقوال والأفعال الحكيمة، يكون لها أي نفع للوصلة به " نجد هذا في قول السيد المسيح " الله محبة ". وفي الإسلام : "أحبوني يحببكم الله لكم من الله ما لي ". " يحبهم ويحبونه " سورة المائدة آية ٥٤.

ويقول أيضاً: " بالإيمان والعمل، بكلمة المعلم يصل الإنسان إلى عقل في صفاء فكر، وحكمة رصينة، وإلى معارف وأسرار الكون، والخلاص الذي يمكنه من تقديم المساعدة للآخرين أن يسلكوا الطريق القويم.

ويقول في الإيمان: يوجد إله واحد، اسمه الحقيقة، وله أسماء وصفات لانهائية، هو الإله الواحد في كل الديانات، إنه الخالق وله الدوام. وكل ما تراه حولك هو خلق الله. إنه في كل مكان، وفي كل إنسان، وليس له أعداء، لم يلد ولم يولد، لا يخشى أحداً ولا يموت. فيما وراء دورة الموت والحياة، ذاتي الاستنارة. معروف للمعلم الحق من خلال رحمته. في البدء هو الحق وكان الحق منذ بداية الزمان، والحق إلى الأبد، وهو الحق الآن. هو مكون الكواكب والنظام الشمسي والعوالم السفلية، ويظهر ما هو باطن. خلق العالم حين أراد ذلك، ودون قوة معينة يحفظ الكون ".

ويخاطب الإنسان بقوله: " يا لك من غبي! لماذا تورط نفسك بانغماسك في الأنانية؟ لما لا تنعم بنعمة الحب للرب الذي يسكن

بداخـــلك.

وفـى حـمـد الله والامتـثال لإرادته يقـول: " أي ناناك ! كـل الكـائنات كـبرت أو صـغرت تحـت رحـمتك. فأنت المعين لكـل الكـائنات. ترعاها وتحـميها ! صلاتي لك هـي أن أحب كـل ما يرضـيك. لأن أحاول اتباع ما تمـليه وفق إرادتك. لذا أتوســل إليك أن تمـنحـني القـوة لأتبع إرادتك. وهبني فضـلك حتى أسـتطيع أن أعيش وفق ما تمـليه مردداً اسـمك الحق ".

وكـما يقـول الصـوفية المسـلمون: كـل ما جال ببالك فالله على خلاف ذلك. يقـول المعلم ناناك: إنه من المسـتحيل تقـدير عظـمتك. وهؤلاء الذين حاولوا وصـفك. فنوا فيك.

وأيضاً يقـول: " سـيدي! الكـون كـله يعـمل ويسـير تحـت رحـمة الحب والخشـيـة سـويا.

ويقـول في السـلوك: بسـبب تمسـك الإنسان بأناه يدخل في حرمـان من نعـمة الحياة بسـبب حبه لمـتع الحـياة الدنـيا. ولا يجد إلا الظـلام من حولـه. يرجع ذلك إلى جهـله وأنانـيته. وبسـبب تمسـكه بأناه. فإن الإنسان يدخل في دورات الحـياة والمـوت. فإذا أدرك ذلك الإنسان الغبـي تفـاهة أناه. عندئذٍ سـيدرك الطريق المؤدى إلى الوحـدة مع الله...وأن الله قد كـتب مصـيرنا على جباهنا حسـب أفـعالنا السـابقة وفق إرادته. ولكـن فـهمنا في الله يظهر لنا بنفس الشـكل الذي تصـورناه له " صفـحة ٤٦٦. وفي الإسلام: " كـن كـيف شـئت فإني كـيفـما تكـون أكـون ".

وقبل أن نذكر شيئاً عن معالم طريق الحق، نعطي معنى كلمتين تردد ذكرهما كثيراً في أحاديث معلمي السيخ، وذلك لنتعرف على المقصود من هذه الكلمات.

التأمل: هو التركيز على الاسم الحق مع الحب والولاء للرب. وهذا يوفر للإنسان غذاءً روحياً يمكنه من رؤية الله في وجوه كل أبناء الإنسانية.

الاسم الحق: تلاوة وتكرار اسم الرب بمعنى: إله، أو الله، أو رام، أو المعلم .. الخ، وذلك يتم بتركيز العقل حتى أن الإنسان يشعر أنه مع الرب، في وحدة تامة معه.

يقول المعلم ناناك: الإنسان الذي قابل المعلم وصادفته القناعة بذكر اسم الله الحق، والذي يتأمل في اسم الله الحق فهو مفعم إلى أقصى حد، وعطشه لحطام الدنيا يروى، هذا الإنسان الذي يتأمل ويردد اسم الله الحق لا يزعجه ملك الموت ".

وهنا يؤيد ويحترم تعدد الطرق إلى الله بقوله: " الله واحد، لكن الناس على اختلافهم اختاروا طرقاً عديدة للوصول إليه. علينا أن نحمده في حضرة أوليائه المباركين. وكما أن الشمس تُحْدِثُ اختلاف الفصول، فالله يتجسد في الزمن والشمس. من هنا تعدد الديانات والطوائف ظهرت للوصول إلى الله فاتبعت طرق عدة ".

ويؤمن بإرادة الله المطلقة، وأنه عالم بالنوايا وما تنطوي عليه الصدور، وهو أدرى بسر علاقة كل إنسان به. يقول في هذا " إن الإنسان الخاضع لإرادة نفسه، وغارق في الرذائل والخطايا تمكنه من

الاتحاد معك بفضل منك وبإرادتك. أي ناناك ! إن المعلم المبارك من فضلك، والذي منحته نور المعرفة تمكنه من الحصول على كل أسرار الحياة والطبيعة، ويستقبل بتكريم في حضرتك ".

ويؤكد على فضل الله بقوله: " إلهي أنا رهن إرادتك، وإني لست في مقام الترنم بمدحك دون أن تمنحني هذا الفضل. وإذا جاز لي أن أدعوك سيدي، فهذا لا يعبر عن عظمتك، لأنك ملك الملوك ".. إلهي أمنحني ذكاءً أستطيع به أن أكون دائم المدح، وأن أندمج في اسمك الحق في كل وقت وحين ".

ويقول في التوحيد في باب جاب جي ص ٢٤ في الاسم الحق " لا أحد يستطيع أن يدرك أو يفهم الله العظيم. في الحقيقة، لا يستطيع أحد أن يعبر عن عظمته، واتساعه اللانهائي، لأنه فيما وراء فهمنا، ولكن عن طريق ترديد اسمه يمكن للإنسان أن يصل إلى تركيز عقله إلى أن يجد نفسه على نفس التردد، ويحصل على الوحدة مع الله ". (الترديد أي الذكر مع الجماعة وبحضور المعلم قبل الفجر أنسب وقت).

ويقول أيضاً " بالإنصات لاسم الله الحق يكسب الإنسان معرفة الفيدا وأسرار الله بما فيها حلول لكل المشاكل، وكل المعاناة تزول... نعرف أسرار الطبيعة، وخلق الله للكون. والأولياء الذين ينصتون إلى اسمه الحق ينعمون بالبركة الأبدية مهما كانت الأفعال التي نؤديها بدون فضل الله فهي زائفة وباطلة، وهي مثل الأفعال الطيبة الخيرة، والإحسان أو إقامة الحفلات الدينية .. الخ. فهي غير مثمرة، إذا خلت من اسم الله الحق. في الحقيقة الحب الحق

يبنى على تنمية الحب والإخلاص لله.

ويقول في سر المصاحبة: " ربي برحمتك هبني صحبة أولياء الله المقدسين الذين يذكرونك في كل وقت وحين ".

ويقول أيضاً في هذا المعنى " كل شيء في العالم باطل عدا الرب الحق. وكل شيء سوف ينقضي. نستطيع أن ننال وندرك الحقيقة عندما تكون قلوبنا طاهرة، وحب الله موجود في القلب. ويمكننا أن نحوز على بركة الحياة شريطة أن نفهم ونمارس تعاليم المعلم، عن طريق إرشاد المعلم، ثم بعدها نتأمل في الاسم الحق. لهذا دعنا نجهز الجسد لنغرس بذور الاسم الحق وإدراك الرب، بتركيز عقولنا على الروح.

إن الله متواجد في كل مكان، حيث أنه كلي الحضور. لهذا لا يوجد مكان أو إنسان بدون حضور الله فيه، فأي إرادة تصدر عنه، تنفذ حسب رضاؤه. فعلينا أن نظل في كنف إرادته لأنه فعال لمرضاته.

أي ناناك! المعلمون الذين أدركوا الحقيقة هم فقط المندمجون في الرب. ويمكننا الحصول على الخلاص عن طريق التأمل في الاسم الحق بتركيز العقل وخلاص أنفسنا من كل الرذائل والأفعال الخاطئة بما فيها متع الحياة الدنيا، وكل ما هو باطل، وذلك بالسجود عند أقدام أولياء الله المقدسين، شريطة أن نكون محظوظين بما قدره الله لنا بإرادته.

المعلم ناناك دف في شبابه هجر مهنته كمحاسب، ووزع كل

متعلقاته إلى الفقراء، وكان ذلك في سن الثلاثين. وظل صامتاً فترة من الزمن، وحين خرج من صمته نطق يقول:

" ليس هناك هنود أو مسلمون، اجعل فضل الله هو مسجدك، وإخلاصك في الصلاة سجادتك، ودع القرآن أن يكون سلوكك المستقيم، واجعل التواضع شفقة وحنو، والأخلاق الحميدة هي صيامك، هذا إذا أردت أن تكون مسلما. اجعل الأفعال الطيبة كعبتك، والحقيقة الناصح المخلص ".

المرحلة التالية من حياته بدأت بالترحال الكثير لنشر رسالة الله. وكان يصحب معه في ترحاله عازف رباب لنقل رسالته إلى الناس في شكل ترانيم تصاحبها الموسيقى. هذا الأسلوب وجده مناسباً لفهم الناس في ذلك الوقت. وكان يستعمل اللغة المحلية للناس الذين يحل بهم.

واخترنا من بين رحلاته الكثيرة الآتي:

نزل ضيفاً عند نجار من طبقة وضيعة يدعى لالو، وفي نفس الوقت كان رئيس المدينة المحلي مالك بهاجو من الأثرياء ذو كبر يدعو القديسين لوليمة. لم يلب المعلم ناناك دعوته، وظل مع مضيفه لالو، وهذا ما أغضب مالك بهاجو، فاستدعاه ليحقق معه، وما كان من المعلم إلا أن أحضر الوجبتان، وبدأ يعصر طعام الثري بين يديه فأخرج دماً، وفعل مثله بطعام لالو فأخرج لبناً، هذا ما أخجل الثري وأدرك أن ثروته جمعت من استغلال الفقراء، بينما ما قدمه

لالو جاء من جهد شاق وعمل شريف.

وفي رحلة أخرى تجمع عدد من الحجاج فطبخ لهم لحم غزال، فثاروا عليه لأن أكل اللحم عندهم محرم. فقال لهم " الأغبياء فقط هم الذين يجادلون إذا كان اللحم يأكل أم لا. إنهم لا يدركون الحقيقة، ولا حتى يتأملون فيها. من ذا الذي يستطيع أن يحدد ما هو اللحم وما هو النبات؟ من هو الذي يعرف أين تقع الخطايا، أهو النباتي أم اللا نباتي؟

وفي رحلة أخرى عند نهر جانج حيث الحجاج ينثرون الماء وهم يغتسلون جهة الشمس، وعندما سألهم: لماذا هذا الاتجاه؟ قالوا: إنهم يبعثون بالماء إلى أمواتهم. فأخذ ينثر الماء في الاتجاه الآخر. وعندما سألوه كيف يكون ذلك فقال " إنني أرسل الماء إلى مزرعتي العطشى " فقالوا " كيف تصل الماء إلى مزرعتك البعيدة جدا؟ " فقال: " إذا كانت المياه تصل إلى جدودكم عند أقاليم الشمس، فلما لا تصل إلى حقلي وهو أقرب من مشواركم إلى الشمس؟ " فأدرك الحجاج غبائهم وخروا ساجدين عند قدميه.

كان يرتدي في رحلاته زياً خليطاً بين الزى الإسلامي والهندي. ذهب إلى التبت وزار الشيخ إبراهيم خليفة بابا فريد الدرويش الصوفي العظيم في القرن الثاني عشر. وسأله الشيخ إبراهيم: ما هو الطريق الحق من بين الديانتين للتحقق في الله؟ فقال: إذا كان هناك إله واحد، إذاً يوجد طريقه الوحيد للوصول إليه، وليس هناك طريق آخر، وعلى الإنسان أن يتبع ذلك الطريق ويهجر أي

طريق آخر. لا تعبد الذي يولد ليموت، ولكن أعبد الأبدي الذي وسع كل الكون.

في رحلة إلى مكة ارتدى لباس الحج وعندما وصل إلى مكة نام من التعب وقدماه متجهة نحو الكعبة. وحين مرور الحارس ركله وأيقظه وقال له: كيف تنام وقدماك متجهة نحو بيت الله؟ فقال المعلم: أيها الرجل الطيب أنا متعب بعد رحلة طويلة، فلو تفضلت وجه قدماي في الاتجاه الذي لا يتواجد فيه الله.

وكان يقول: الزهد هو أن يحتفظ الإنسان بنقائه وسط التلوث. وعند وفاته أراد الهندوس حرق جثته، والمسلمون أرادوا دفنه. فقال لهم ضعوا زهوراً عن يميني للهندوس، وزهوراً عن شمالي للمسلمين، وعندما يأتي الصباح نرى زهور أيهم لم تذبل ثم نتبع ملتهم في التصرف في الجثة. وفي الصباح كشفوا الغطاء فلم يجدوه، فقد اندمج في النور الإلهي، ووجدوا الزهور يانعة. فدفن المسلمون زهورهم وحرق الهندوس زهورهم.

<u>المعلم جوبند سنغ</u> : (المعلم العاشر)

إلهي إنك في كل البشر لأنك كلي الحضور، وأنت تمثل البهجة والبركة، وأنت المحبوب والمعبود من الكل. بفضل الواحد المتعال الرب.. تجسيد الحقيقة... الوصول إليه لا يتم إلا عن طريق إرشاد المعلم. وفي كلمات كثيرة يعدد القوى والبهاء والنور والبهجة والبركة، وأنه المحبوب والمنعم والعظيم والخالق والمتفضل بالرحمة.

ومعلمو السيخ في كتابهم المقدس يصفون المطلق بأنه لا

شكل ولا كسم ولا طائفة ولا عقيدة له. ولا يستطع أحد أن يصفه أو يرسمه.(يقول المتصوفة المسلمون في هذا:
" كل ما جال ببالك فالله على خلاف ذلك". لكن ما يحسه من تجلياته بمعنى آلائه هو قدرته السرمدية ونوره الأبدي، وأنه سيد الكون، وكل مظاهر الحياة من أرض وسماء وجميع العوالم بكائناتها هو سيدها، ويخاطبونه باللانهائي، ويعجزون عن تقديره، وأن ليس هناك مناسك يمكن أن تؤدى له. {غني عن العالمين} آل عمران ٩٧ {لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية} ويقولون أنه كلي الحضور في كل كائناته، وأنه ليس له اسم {هل تعلم له سمياً} مريم ٦٥ {قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون} الأنعام ٩١. وأنه يسكن كل قلب، وليس له دين معين ولم يلد ولم يولد، وهو جمال الكون واستنارته، مانح الموت والحياة، يعرف المشاعر الداخلية لعابديه.
ويخاطبونه في صلاتهم " ربنا الحمد لك! أنت ملجأ الفضل، والرحمة مجسدة فيك، ومحطم كل ما هو شر، تمثل البركة ومانح النعمة، وماحي الأفعال الخاطئة والشريرة. ربنا أفعالك سرمدية راسخة، وليس هناك من أحد يعارض مبادئك، أنت الساري في كل مكان، وفي كل أشكال الحياة.

الرب غير معلوم باسم معين..إنه الواحد الذي يظهر في أشكال عدة.
ربنا أنت الملك الأعظم بين الملوك، ومانح البهاء للشمس، حتى

الآلـهة يعـبدونك.

ربـنا التحـيات لك! أنت الظـلام كـله، كمـا انك مالك طاقة الاسـتنارة.

المـعلم أرجـان دف: ١٥٦٣ – ١٦٠٦م

وضـع أسـاس المعـبد الذهبي، وفرض عشـر دخل السـيخ لبنائه. وجعل له أربـعة أبواب تمثل الجـهات الأربع.. يقول في ذلك " عقيدتي للـناس جمـيعاً من كل الطوائف وجمـيع العـقائد بغض النظر عن الاتـجاه القادمين منه أو الجهة التي يسـجدون لها". له جولات ورحـلات كثيرة.

رزق بطـفل هو المعلم هارجـوبند الذي حاول المغول قتله مرتـين وفشـلوا. تول ابنه بالرعاية والتعليم في شـتى العلوم المادية والروحـية. وكان يقود التجـمعات الكثـيفة للسـيخ يؤدي بهم الصـلاة عل موسـيقى تعبدية ومنشـدين.

نقم عليه أحد الأثرياء لرفضـه زواج ابنه هارجوبند من ابنـته. فشـكاه إلى الحاكم المسـلم المغولي، وادعى عليه أنه ينتـقص من قدر الإسلام والهـندوس. فدعاهم الحاكم ومعهم نسـخة من الكتاب المقدس وقرأ المعلم أرجان دف الترتيلة الأولى من الكتاب المقدس: " إنك لا ترى الله الذي يسـكن في قلبك، وأنت تحمل وثن حول عنـقك. وتدور حول ماء آسـن، غير مؤمن، وتموت غارقاً في أوهام باطلة. والوثن الذي تدعوه إلهاً سـوف يغرق معك " فصـاح الإمبراطور: " لم أجد إلا الحب والإخلاص وليس هناك مدح أو ذم لأي أحد في هذا الكتاب. إنه كتاب يسـتحق التبـجيل ". وأراد أن يمنحه

عطاء. فطلب منه المعلم أرجان أن يعفى فلاحي البنجاب من الجعل السنوي على الأراضي بسبب الجفاف. فاستجاب لطلبه.

ومات الإمبراطور أكبر. وخلفه كان سكيرا وضيع الخلق. ترك الحكم لبعض أتباعه الناقمين على المعلم أرجان. وطلبوا إليه المثول بين يديهم. وقبل أن يذهب إليهم عيّن ابنه هارجوبند معلما. وحين وصوله. طلبوا منه تعديل كتاب السيخ. بأن يمحي كل ما هو إسلامي أو هندوسي. فرفض. فسجن وعذّب بوحشية. وكان في سكينة تامة أثناء تعذيبه. ولم يعرف معذبوه ماذا يفعلون أمام هذه السكينة. وطلب منهم أن يغتسل في نهر قريب. ومشى إلى هناك وسط جموع السيخ وهو يردد: " كم تطيب لي إرادتك. إلهي بركة اسمك فقط الذي أصبو إليه" ومشى على ضفة النهر يودع أتباعه. وذهب إلى الأبد. وأخذه التيار. وموته بهذه الوحشية غيرت من سياسة وسلوك وتاريخ السيخ.

ونذكر بعضا من ترانيمه في الكتاب المقدس والبالغة ٢٢١٨ ترنيمة. يقول في مناجاته وابتهالاته لله: يطوق قلبي لينال لمحة من محبوبي المعلم... حبيب الأولياء! بدون لمحتك أشعر بالسقم والعطش ولا أجدني في راحة أو سلام عقل. حبيبي المعلم! أقدم نفسي أضحية مقابل لمحة منك.. من نفسك المقدسة. يا معلمي المقدس. معلمي المقدس..حين أغيب عنك للحظة تبدو لي أنها دهور من الزمن لم أقابلك فيها. أيها الرب الحق! أسترحمك.. متى تمكنني من نوال لمحة من روحك المقدسة.

ويقول المعلم أبو الحسن الشاذلي: " لو غاب عني رسول الله طرفة

عين ما عددت نفسي من المسلمين " ويقول المعلم أرجان في نفس المعنى: " لقد مكنت من لقاء المعلم المقدس بتوفيق طيب منه. وفى الحقيقة أنني نلت في قلبي الرب الذي لا انقضاء له. يا ناناك! دعني أخدم سيدي الحق الذي لا انفصال عنه حتى للحظة. حيث أنني عبد للحق ربي! ". هنا يتكلم عن سر المصاحبة وما لها من أهمية كبرى في طريق الله.

"إلهي وخالقي العليم! أنت وحدك سيد قدري، امنحني بركة التحقق الباطني، هو المعنى الذي أرنو إليه! معلمي ناناك! إني أتوسل إلى ربي أن يمنحني سعادة وجودي في حضرة أولياء الله. وأن أكون التراب الذي تحت أقدامهم لعلي أسعد ببركة الحياة الأبدية ".

"الإنسان المتأمل في الاسم الحق يقهر عقله، ويمتلك سلوكا مستقيما وطاهرا، ذلك الإنسان الذي يذكر اسم الرب في كل وقت وحين تجده سعيدا وفى حال مبارك ومقترب من الرب ".

" أخي دعنا ننشد البركات من الرب العليم الذي يعرف خلقه ومعين قديسيه ومبارك أعمالهم. ربنا وحده الذي يقضى في ثمار مجهوداتنا، ولهذا الذين لهم عقول متناغمة مع المعلم يشاهدونه عن قرب، بينما آخرون يشعرون بقدرته عن بعد. ولكن الله فعال لما يريد، حيث هو فوق ذكاء تدبيرهم وأفعالهم. حقا الرب عليم بمشاعرنا الداخلية ولضمائرنا وأرواحنا، ويعطي القدرة لبعضنا أن يتوحدوا معه، وهم من أحب، وهو كلي الحضور، والذي يباركه، من فضله عليه يقيمه في خدمته ".

ويقول في مقام المعلم وفضله على من يتابعه: " الإنسان الذي

نما حب المعلم (في قلبه) والإيمان به هو ذكرا لله. الإنسان الذي زرع حب الله في قلبه يأتي أفعاله، ويحيا سلوكا غاية في النقاء، فهو لا ينطق إلا الحق، حيث الحق متواجد في قلبه، بصيرته طاهرة، ومظهره الخارجي يبدو صادقا مستقيما، يتعامل بالحق، ويرى أن العالم كله هو شكل من أشكال تدبير الله الحق ". وفى الإسلام: " تخلقوا بأخلاق الله "، " كان خلقه القرآن". " المعلم الحق دائما في عون مريده، ويمنحه بركته من فضله، ويعينه على التخلص من أي شر أو أفكار خاطئة، ويجعل إدراكه سليما مستقيما متبعا إرشاد المعلم، ومتأملا في اسم الله الحق في كل وقت وحين. المعلم يعينه على التخلص من عودة الحياة بإبعاده عن كل أفكار شريرة والذنوب، ويتفضل عليه برحيق الاسم الحق ". معلمي ناناك! المعلم يحفظ مريده قريبا من قلبه ويحميه من كل الشرور ".

" أخي حاول تدريب عقلك بعون اسم الله الحق، فعلك الشارد في كل الاتجاهات يمكنه أن يركز في شيء واحد، ألا وهو الاسم الحق، والذي يزرع كلمة الله في قلبه لا يواجه أي مشاكل ".

" اسم الله جوهرة لا تقدر بثمن، ولا يمكن أن يسرقها أي لص".

"الغبي دائما يتصور وجود الله القريب جدا كقوة بعيدة جدا، وليس غير الله وحده حامياً ومنقذا للإنسان وهو راعيه حتى النهاية ".

الله يحكم كل شيء وهو المسبب، والمؤدي لكل فعل، حيث كل القوى متروكة له. الكون انبعث منه، وفى النهاية يندمج فيه، لكن ما يحدث هنا يحدث برضاء الله وتدبير منه ".

"الهدف الرئيسي لحياة الإنسان هو أن يصبح جزءً لا يتجزأ من الرب. لذلك فإن الإنسان لا يدرك شيئاً آخر عدا الرب. مثل ذلك الإنسان يدعى " براهم جاينى" (براهم جاينى معلم كبير ومثل أعلى لمعلمي السيخ. وكذلك المعلم كبير).

"إنه الولي فقط الذي في مكنته أن يدرك عظمة الرب المقدس ويعبر عن ذلك بحمده. ناناك! ليس هناك تفرقة بين الرب وأوليائه. {ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله} النساء ١٥٠.

"أنا لا أنشد ملكا ولا أن أنال خلاصا ولكني أنشد ملجأ تحت قدمي المعلم لأمنح حب الرب في قلبي". " إن ربي يرعى كل نفس. نستنشقه وهو حامينا. لذا دعنا نؤكد أن كل نفس لنا يوجه نحو ذكر المعلم فقط. وكل لحظة في حياتنا نقضيها في ذكر اسمك لن تضيع سدى". {يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم}.

المعلم رام داس:

المعلم الرابع يقول: ربى! الذي يحظى بفضلك يمكنه أن يدرك المعنى الحقيقي لكل هذا الخلق وأسراره. وهو منفرد ينشد حمدك.

محبو الرب الحق يمحون دوما في تأمل الاسم الحق وبهذا يقهرون عذاب دورات الحياة والموت. لقد أدركوا ربهم المتواجد أبدا فيهم. وكسبوا الشهرة العريضة في هذا العالم وما بعده.

المعلم أمار داس:

المعلم الثالث يقول: ناناك! إنه فقط من خلال توجيه المعلم نحصل على المعرفة الحقة لله. والتي تمكننا من إزالة شكوكنا

وهواجسنا وتفكيرنا المشتت. ومع أن كل المناسك الدينية لا تؤدي إلى الاستنارة، ولا شكوكنا تُزال بتلك الأفعال، على العكس، العقل يلوث ويصبح غير طاهر بتلك الأفعال. إنها رسالة المعلم فقط يمكنها أن تساعدنا.

المعلم كبير:

الإنسان مشتت الفكر ومحب للعالم الزائف، لا يمكنه نوال أي شيء من تأمله أو توبته، وأن يأتي ممارسات دينية معينة، فهو مازال مكبل تحت نير أناه، بينما آخرون يتعاونون في خدمة تماثيل حجرية، فلا طائل من وراء ذلك. في حين إنسان بسيط يحظى بحب الله بعبادة بسيطة خالصة فيها ولاء. واجب علينا أن ننمي حب الله، كسب الله يكون بالحب بالطريق المعتاد، وبدون مراعاة المناسك الدينية المعتادة.

جورو هارجوبند: الجورو السادس.

بدأ رسالته سنة ١٦٠٦ قبل عدة أيام من استشهاد والده. رفض عند تعميده للريادة الدينية أن يلبس حبلاً صوفياً يوضع على الرأس، وبدلاً من ذلك طلب أن يوضع سيفين: الأول يرمز للقوة والثاني للتأمل، وبهذا يقبض على القوة المادية والقوة الروحية. بنا معبداً مقابلاً للمعبد الذهبي، وجعل به عرشاً لرعاية شئون السيخ من هذا المكان، ولقب بالملك الحق. ورأى أن حرية السيخ لا تمنح هكذا ولكن بالجهاد ضد الطغيان والظلم. وأعطى تعليماته

بأن يهتم السيخ بالخيول والأسلحة بدلاً من التركيز على جمع المال. ولم يعد إيمانهم قاصرا على إنكار الذات، ولكن الإصرار على إعادة الحق. وأخذ السيخ في التدريبات البدنية والحربية، وعلى الصلاة أيضاً. وعلم إمبراطور البلاد بذلك فاستدعاه، فذهب إليه بصحبة ثلاثمائة فارس، وأخبر الإمبراطور أنه ليس هناك خطر على الإسلام بنشر ديانة السيخ. وحين سأله الإمبراطور عن الأفضل الإسلام أم الهندوسية، فاقتبس المعلم هارجوبند من كلام المعلم كبير:

"في البدء خلق الله النور، وانبعث الناس منه، وظهر العالم جميعه من شرارة واحدة، فمن الخير ومن السوء؟ إن الله متواجد في خلقه، والخلق في الخالق. إنه في كل مكان.."

ومات الإمبراطور، ودخل خلفه مع المعلم في حرب وهزم جيش الإمبراطور. وكذلك هزم في حرب ثانية. وكان المعلم يردد: " نحن نحارب من أجل قضية عادلة، ومن حقنا أن نعيش بكرامة وفي سلام، ولا نعيش من أجل مجد شخصي أو نحكم ونتسلط على الآخرين " ودخل حرب أخرى مع المغول والتي فيها انضم أحد قواده إلى المغول، وخرج من هذه الحرب بخسارة سبعمائة من قتلى السيخ. بعد الحرب اعتزل وبَعُد عن مدينة القتال لتجنب مزيدا من إراقة الدماء. في اعتزاله توافد الناس عليه من كل أنحاء الهند وبدأت الدعوة في الانتشار ورحل سنة ١٦٤٤ مخلفا وراءه جنودا قديسين من صنع يديه.

سـأله ناسـك هندي " كيف لك اعتـلاء عرش المعلم ناناك العظـيم وتتسـلح ولك قوات وخيل ويخاطبونك بالملك الحق. فأي نوع من القديسـين أنت؟ " فقال له المعلم هارجوبند: " إنني أظهر الملكـية من الخارج فقط. ولكني لا منتـمى من الداخل مثل أي ناسـك. والمعلم ناناك لم يهـجر العالم. إنه هجر الوهم والأنانيـة ".

رسـالة الكـتاب المقـدس:

كل شـعوب العالم متسـاوون. وكذلك النسـاء. إله واحد للكـل. تكـلم وعش صـادقا. تحكم في الرذائل. عش بحـكمة الله (القانون الكوني). ذكر الله في كل وقت وحين. مارس التواضـع والرحـمة والشـفقة. نبز الخرافـات. لا نؤدي المـناسـك بشـكل أعمى.

المبادئ والسـلوك:

يرفض معلمو السـيخ كل أشـكال المنـاسـك بدون فهم (كل مدعي التدين في كل دين يتصـارعون مع الآخر على شـكل المنسـك. دون أن يتأملوا فيما يشـير إليه من معنى) مثل الصـوم أو اتباع مذهب النباتـيين. نبذ أنواع الحـج. والخرافات. واليوجا. وأيضا أي شـكل من أشـكال عبادة أي وثن " دع السـلوك القويم صـيامك ".

الخـلاص عند المعلمين السـيخ يمكن الحصـول عليه باتـباع طرق روحـية عديدة. وبهذا فهم لا يحتكرون طريقا للخـلاص. فكل الطرق الروحية تقودك إلى الله. ولا يعتبرون أنفسـهم " شـعب الله المخـتار " وكتابهم المقدس يقدم رسـالة المساواة بين البشـر – برغم الاخـتلاف الديني – ويقدمون النصـح للمسـلمين أن يكونوا مسـلمين أقوم.

والهندوس أن يكونوا كذلك. وتعاليم السيخ بخلاف كل الطرق. طريقهم أكثر بساطة ومباشر إلى الخلاص: "هو التوحيد مع الله " وهم يعتقدون أن الكهنة لا يملكون مفتاح الخلاص للإنسان. ولكن الله قد أعطى كل إنسان الحق أن يسمع ويطيع كلمة الله. المباركون والقديسون هم هؤلاء الذين يستغرقون في الحقيقة. والإنسان الذي يمحو الأنانية والكبرياء يعتق في محكمة الرب. مارس تعاليم القرآن والإنجيل في قلبك. واكبح أعضاء الحواس من الانغماس في الشر، واربط الشياطين الخمس للرغبة بالإيمان والإحسان والرضا. وسوف تكون مرضياً عنك.

تحث ديانة السيخ على الحياة العائلية الطبيعية، لأن حياة العزوبية وهجر العالم ليس ضرورية لتحقيق الخلاص. وعلى المريد أن يعيش في هذا العالم مع الحفاظ على عقله نقيا. فعليه أن يكون جنديا، وعالما، وقديسا.

موقف السيخ من النساء:

يؤكد المعلم ناناك دف على المساواة الكاملة للنساء. ويرفض حرق الأنثى (حرق الزوجة في حالة موت زوجها عند الهندوس) ويسمح بزواج الأرملة. ويرفض لبس الحجاب يقول:

تولد من امرأة، وحملنا رحم امرأة، ونخطب ونتزوج امرأة، ونصادق امرأة، ويستمر سلسلة الأحياء من المرأة، وعندما تموت نتخذ لنا أخرى، ونحن مرتبطون بهذا العالم من خلالها. فلماذا نتفوه بالباطل عليها. من أعطى الحياة للملوك؟ المرأة تولد من المرأة، لا يجيء أحد إلا عن طريقها، ما عدا الواحد الحق فلا امرأة له.

ويخاطب المعلم ناناك المرأة بقوله:

سيدتي الجميلة! ألا تسمعين بأذنيك. عليك بإعمار بيت زوجك. فلا يمكنك السكن في بيت أبيك إلى الأبد.

الاتجاه الايجابي في الحياة:

لتكون متناغما مع قانون الحق والحياة عليك أن تكون دائما ذي رأي إيجابي متفائل. وبهجة تجاه الحياة. يقول المعلم ناناك:

كل رفاقي منغمسين في ملذاتهم الحسية. إنهم لا يعرفون كيف يحرسون بيتهم. فقد سلبهم اللصوص الخمس. ونزل السفاحون على القرية الخالية من حراسها " بداخل هذا الجسد يسكن اللصوص الخمس وهي: الشهوة. والغضب والطمع. والارتباط العاطفي. والأنانية. إنهم يسلبون الرحيق. والإنسان الذي محوره أناه لا يدرك ذلك ولا يستمع أحد لشكواه.

العالم أعمى ومعاملاته عمياء كذلك. بدون المعلم لا تجد إلا انحدارا كله ظلام " تغنوا باسم الرب. يا أولياء الله الطاهرون. تأملوا في كون الله. تأملوا فكراً وكلمة وفعلاً في ربكم. تعبدوا واعشقوا الرب " واجهوا بالأسلحة الخمس: الرضاء. الإحسان. الرحمة. الطاقة الموجبة. والتواضع".

دعامات السيخ الثلاث:

- يحث معلمو السيخ المريد بصورة مباشرة أن يمارس التأمل. أن يردد اسم الله. أن يتذكر يوميا فضل الله القدير.
- أن يكسب عيشه بأمانة بجهده الجسدي والعقلي في حين يقبل عطايا الله وبركته. وعليه أن يقول الصدق في كل وقت وحين.

وأن يخشى الله، ويعيش حياة محترمة، بقيم أخلاقية راقية روحيا " الذي يأكل مما يكسب عن طريق جهد شغوف بحب، ويتصدق مما كسبت يداه هو فقط يعرف طريق الحياة الحقة ".

-يطلب من السيخي أن يشارك الثروة داخل مجتمعه بالمقولة " شارك واستهلك سويا ". المجتمع جزء مهم في السيخية. وعلى الفرد أن يكون جزءً من الجماعة التي تسعى إلى القيم التي فرضها المعلم. وعلى كل سيخي أن يعطى وبأي طريقة ممكنة للجماعة. روح العطاء هذه هي رسالة مهمة من المعلم ناناك دف. حب الناس هو السبيل الذي نخدم به الإله..القوة الأولية. وأن يتعهد الإنسان أن يساعد من هو أقل منه حظاً في الحياة بالمال أو بالمساعدة الجسدية.

ديانة السيخ كرسالة إنسانية:

يعتقد السيخ أن كل البشر متساوون " نحن أبناء وبنات القادر "ينظرون إلى الكل بروح المساواة، ويتعرفون على الروح العظيم الذي ينتشر فيهم جميعاً. والذين يرددون حمد الرب يحصلون على القيام الراقي وهم الأكثر رقيا" إنه داخلك..وشاهده خارجك أيضاً. لا يوجد غيرية. أنظر للكل بعين المساواة. في كل قلب يوجد النور المقدس.. بفضل المعلم أرى الواحد. أنا أضحية للمعلم الحق ". "دافع واحم وقاتل من أجل حقوق كل المخلوقات، وعلى وجه الخصوص بني جنسك. كن مستعدا أن تقدم حياتك من أجل المبادئ العليا ".

ونختم حديثنا عن ديانة السيخ بصلاة للمعلم الرابع جورو رام داس:

" سيدي ناناك! ربي الرحيم! نتوسل إليك أن تسمع صلواتنا وتوحدنا معك. إنني أنشد عون اسمك الحق. وأسترحمك أن تصب نعمة الاسم الحق في. سيدي المنعم علىّ قدسيتك! نعرف أنك ترعى صالح أي إنسان يسألك إياها ".

كما رأينا أن ديانة السيخ هذه تتفق مع الإسلام ومع كل الديانات الأخرى من حيث التوحيد؛ فهم يقدسون الواحد الأحد. وينزهونه عن الوصف والرسم. وهناك طرق كثيرة للوصول إليه والوصلة به وفق ما يرى رائد الديانة. مراعيا مستوى وقدرة كل إنسان مريد على حدة " لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق ". إلى جانب التأكيد على التمسك والتعاون مع الجماعة. وأن خدمة المجتمع بحب والتفاني في الخدمة من سنن الدين. وأن عقائد وشرائع الدين مكفولة لكل إنسان على هذه الأرض. وليست قاصرة على تابعي الديانة. والمساواة بين الناس بغض النظر عن انتماءاتهم. والاعتراف بآدمية المرأة. ورفع عنها نظرة المجتمع الدونية. ورسم الطريق إلى كسب المعاني الحقية بالتأمل وذكر الاسم الحق في كل وقت وحين بشوق ومحبة ليحصل الإنسان على الخلاص من نفسه. ليتفرغ لذكر الاسم الحق والتأمل. ليحقق ذاته. ويهبه الله الوحدة مع الكائن المقدس بعون وفضل المعلم الروحي مثل جورو ناناك دف.

فهل بعد هذا العرض المختصر لهذه الديانة نجد أي نوع من الاختلاف

بين هذا الدين وبين دين آخر. الاختلاف يأتي من الموروث الثقافي لمعتنقي أي دين، والفهم السطحي للنصوص، نتيجة الاعتماد على عقل له رباط قوي بالنفس الضيقة التي لا تستطيع أن تتسع لتلك المعاني الحقية المعنوية الإنسانية. ولهذا فإن رواد الأديان يوجهون أتباعهم بأن يتأملوا ويتفكروا ويتدبروا كل ما يعرض عليهم من نصوص الدين أو ما يتعرضون له من أحداث في حياتهم، وذلك ليكوّنوا لأنفسهم بعون الطاقة التي يكتسبونها من المعلم وجوداً حياً من الثقافة الروحية والحقية الكامنة فيهم، ينعكسون إلى داخلهم، ليشاهدوا ما أودع الله فيهم من سره، ويتعلموا ممن سبقهم إلى مشاهدة هذا السر (المعلم ومن تحققوا بعونه) وكيف يتعاملون مع هذا السر، وكيف أن ذكر الله ينمي هذا السر فيهم لدرجة أنه يصبح كل وجودهم. وهذا هو التوحيد. ساعتها يستطيع المريد أن يقول لا موجود بحق إلا الله. كما قالها ابن عربي والحلاج وغيرهم ممن تحققوا في الله. وكل إنسان صدق وأحب وعشق أعلاه.

الناس تظن أن تنفيذ أوامر الدين هو أن تقوم بتأدية المناسك، ولكن الأمر ما هو إلا كشف قانون من قوانين الحق والحقيقة بصورة مطلقه. وعلى الإنسان أن يتأمل ويتدبر ويتفكر في الأمر ليعرف أبعاده وبعضاً من وجوهه، يتعلم كيف يقوم في الأمر حقا وصدقا، لا تنفيذا لأمر يؤدي إلى عقاب أو ثواب. فكشف قوانين طريق الله إلى داخل الإنسان هو أسمى وأقوم معاني يبحث عنها الإنسان وتكون هدفه من أي عبادة.

الفصل الرابع

الخلافة والحكم في الإسلام

هذا البحث يتعرض لمسألة الخلافة من خلال بحث الدكتور علي عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم". في سنة ١٩٢٥ م أراد الملك فؤاد إعلان نفسه في منصب خليفة للمسلمين وأنه ينتمي لبيت رسول الله فظهر هذا الكتاب متصدياً لهذا الإعلان فأبطله. فما كان من الأزهر مجاملة للملك أن أبعدوا الدكتور علي عبد الرازق عن الأزهر وسحبوا منه علمية الأزهر. وصادروا الكتاب. وفى سنة ١٩٤٨ عين وزيراً للأوقاف وسمح له بنشر كتابه.

بعد أن لحق الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) بالرفيق الأعلى نشأ بما عرف في التاريخ الإسلامي بالخلافة والإمامة والأمير والسلطان والملك في العصر الحديث. والخلافة والإمامة في صدر الإسلام أخذت طابعاً دينياً نتيجة ترسيخ عقيدة عند الناس من جانب الحكام بأن الخليفة هو من يخلف رسول الله دينا ودنيا. وهذه العقيدة جعلت من الحكام طغاة. انفردوا بالسلطة المطلقة.. حكاما بأمر الله – إلا من رحم – مثال ذلك نرى السيد/ عمر بن الخطاب وتحريه العدل في الحكم. قدر استطاعته. ولكن في بعض القضايا الصعبة كان يستشير سيدنا علي ابن أبى طالب. وكان يردد بعد كل قضاء حكيم أدلى به سيدنا على "لولا علي لهلك عمر". ونستثني أيضاً السيد عمر ابن عبد العزيز الذي ملأ

الدنيا عدلاً وتقوى، وأصلح أمور الناس، وازدهرت مناحي الحياة في عصره الذي امتد سنتان فقط.

العدل نتيجة طبيعية لتقوى الله، أخذها وطبقها الحكام المقسطون من الرسول كما ذكر في كتاب الدكتور علي عبد الرازق بقوله: إن المسلم العادي يعتقد أن النبي كان ملكا رسولا. وأنه أسس الإسلام دولة سياسية مدنية، كان هو ملكها وسيدها، يؤيده الوحي وتؤازره الملائكة. ونقول: أن هذا ضمن رسالته ليكون القدوة لأهله في الحكم، وهو رسول، ملكٌ ورسول رعية بحاله في الأمرين.

ومن اعتقاد الناس في قدسية الحكام كخلفاء لرسول الله اتخذ الحكام لأنفسهم مقاما دينيا ومكانة عليا بين الناس. وفيما يلي سنرى كيف كان الصراع على السلطة والحكم من أول خليفة للمسلمين حتى الآن من خلال استعراض تاريخ الحكم في الدولة الإسلامية، ثم نقيّم وضع الحكام كأصحاب سلطة، أم أنهم شخصيات دينية اتقوا الله في رعاياهم.

تمت المبايعة للسيد/ أبي بكر الصديق ولقب بالخليفة، ثم ولي الخلافة من بعده السيدان/ عمر وعثمان، ونعرف كيف استغل قتل سيدنا عثمان من جانب أقاربه بنو أمية " بكلمة حق أريد بها باطل" في حرب سيدنا الإمام علي، وكيف كانت الخديعة فيما عرف بالفتنة الكبرى، انتهت بحكم الأمويين. وولاية السادة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي الذين عرفوا بالخلفاء الراشدين لم يقم

أحد من هؤلاء الأربعة دولة لتبقى في أسرته. فلما قتل سيدنا علي حاول فريق أن يولوا ابنه الحسن منصب الخلافة. بل لقد بايعه أهل العراق. فكانت محاولتهم هذه هي أصل الخلافات المذهبية بين المسلمين. وانتهى الأمر بتخلي الحسن عن المطالبة بالخلافة. وتنازل عنها لمعاوية وابنه يزيد.

أما معاوية ابن أبي سفيان جعل الخلافة في أسرته. وأقام الدولة ألأموية. وحتى يكون الحكم خالصا له دون منازع قتل سيدنا الحسين وكثير من أهل البيت والصحابة لحب معاوية وابنه يزيد للحكم. وخلفاء بني أمية ١٤ خليفة. وكانت دمشق مقر حكمهم. وفى سنة ١٣٢ هجرية (٧٥٠ م) حلت الخلافة العباسية محل الدولة الأموية. إلا في بلاد الأندلس. وكان خلفاء بني العباس ٣٧ ينحدرون من العباس عم النبي. وقد انقرضت الدولة الأموية. بأن قتل السفاح أول الخلفاء العباسيين مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية هو وكل أفراد أسرته. وكان مقرها العراق. وبهذا قامت الخلافة العباسية بحد السيف.

وضعفت الخلافة العباسية الحاكمة في عهد المستعصم بالله. في حين تحركت الجيوش المغولية إلى إيران. ولما فرغ هولاكو من القضاء على الإسماعيلية في إيران وصل بغداد سنة ١٢٥٦ م وأعدم المستعصم بالله وقضى على كل ما يمت للأسرة العباسية بصلة. وبهذا انقرضت الخلافة العباسية. ولكن العباسيين بقوا في القاهرة ظلا للسلطة الروحية. إلى أن فتح السلطان سليم

مصر سنة ١٥١٧ م .

كانت الدولة الإسلامية منحصرة في بلاد العرب. وانسعت في ولاية أبو بكر. والحكومة التي تملك أرجاء متباعدة إلى هذا الحد لا يمكن أن تكون طويلة البقاء. ففي الأندلس تأسست دولة أموية مستقلة عن العباسيين، وأقام إدريس، وهو من أحفاد سيدنا علي دولة علوية في المغرب الأقصى. وخرجت سواحل أفريقيا من قبضة العباسيين إلى الأغالبة في القيروان. واستقلت مصر وسوريا بقيام الدولة الطولونية ثم الإخشيدية. واستقل قائد الخليفة المأمون بالأقاليم الشرقية إيران وما وراء النهر، مع اعترافه بالسلطة الروحية للخلافة العباسية لضمان استمرار الحكم في يده.

ونتيجة إجماع الأمة على نصب الإمام أو الخليفة إجماعاً دالاً على وجوبه، هذا الإجماع جعل الظاهر بيبرس يستغل السلطة الروحية للخلافة – وهذا بالطبع ما يفتقده – استعمل رجلا من أنقاض بيت العباسيين وأنشأ منه بيتا للخلافة في مصر. في حين ظل في يديه تصريف حركته وسكناته، واستمر الأمر كذلك إلى أن استولى على الحكم العثمانيون بعد حروب مضنية مع المماليك حكام مصر.

أما الخلفاء الفاطميون الذي امتد حكمهم من ٩١٠ إلى ١١٧١ م يزعمون أنهم من نسل السيدة فاطمة. وقد مهّد الأدارسة (الذين لقنوا المذهب الشيعي للبربر في شمال أفريقيا) الطريق للحكم الفاطمي. وأصل الحركة الفاطمية يرجع إلى المذهب

الإسماعيلي. وإسماعيل هو الإمام السابع، وابن الإمام جعفر الصادق، ولكن الإثنى عشرية لا تعترف به كإمام. ونشأت الدولة الفاطمية في (المهدية) قرب تونس، ثم امتدت إلى صقلية وسردينيا ثم مصر، واتخذوا القاهرة عاصمة لهم. وبنوا الأزهر، وتوسعوا شمالاً إلى سوريا ثم حلب، ودخلت مكة والمدينة في طاعتهم، وامتد غزوهم إلى حدود المغرب الأقصى. وبنقل العاصمة من المهدية إلى القاهرة أدى إلى خروج الولايات المغربية من أيديهم. وكذلك استولى النورمان على صقلية ومالطة ثم طرابلس والمهدية والقيروان. وفى مصر أظهر الحاكم بأمر الله سنة ٩٩٦ م تعصبا واستبدادا في نشر المذهب الشيعي، وأعلن إلوهيته سنة ١٠١٧ م . وكانت نهاية الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧١ م . واستقل صلاح الدين بحكم مصر وحل المذهب السني محل المذهب الشيعي، ودخل دمشق ثم الموصل وهزم الصليبيين سنة ١١٨٧ م .

انتقل حكم الأيوبيين إلى المماليك بعد مقتل ابن الصالح أيوب سنة١٢٥٠ م، ولكن تقتضي السياسة إجلاس أحد أفراد الأسرة الأيوبية على العرش، فانتخب الأشرف موسى من أحفاد الملك الكامل، وكان لا يزال في السادسة من عمره سلطانا. وعمرت دولة المماليك ٢٧٥ عاما ضمت خلالها الشام والجزيرة العربية رغم توالي الحروب الداخلية والاضطرابات السياسية والمنازعات الطائفية. واهتموا بالعلوم والفنون، ويرجع إليهم الفضل في هزيمة جحافل المغول. إلا أن الخصومة دبت بين سلاطين مصر

وتركيا تمخضت عن حروب كثيرة إلى أن هزم السلطان سليم جيش مصر في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م وانقرضت بذلك دولة المماليك.

بقى الحكم لمدة ثلاثة قرون في يد سلاطين الدولة العثمانية إلى أن قدم إلى البلاد العربية الفرنسيون. فأرسل العثمانيون من يقاومهم وعلى رأسهم محمد علي . ونجح أخيراً في أن يكون واليا على مصر. وأنشأ أبناؤه بما عرف بلقب الخديوي. واستطاع محمد علي أن يخلّص الحجاز من الوهابيين. ثم استولى على عكا ثم حلب. ثم الاتفاق بينه وبين الدولة العثمانية على ضم سوريا لمصر. ثم طمع محمد علي في الاستيلاء على تركيا. ولكن تركيا بالتحالف مع الدول الغربية هزمته. وصدر فرمان ١٨٤١ م بأن يرث مصر وأبناؤه من بعده ويدفع الجزية. وبقيت مصر مرتبطة بالدولة العثمانية صوريا.

ثم جاء احتلال الجيوش الغربية للمنطقة. وقسموا بلادها فيما بينهم. وكان ذلك في أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين. وبدأت حركات الاستقلال قُطْر تلو الآخر. نذكر منها الانقلاب العسكري في مصر ١٩٥٢ م الذي أطاح بحكم أسرة محمد علي.

وأصبحت الدول الإسلامية في المنطقة ملكية كانت أو جمهورية باقية على حالها كما كانت بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى من حكم الفرد. ولم نأخذ من أساليب الغرب في الحكم إلا الشكل فقط.

ونرجع إلى المقولة التي بني عليها الحكم في الدولة الإسلامية ألا وهى " إجماع الأمة على نصب الإمام أو الخليفة إجماعا دالا على وجوبه ". هذا المفهوم في هذه العبارة هو ما استند إليه إجماع الأمة على اختيار خليفة رسول الله. هذا ما اعتقده الناس في نظام الحكم فى الدولة الإسلامية بعد انتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) والذي بني أساساً على معتقد ديني، وهو عبارة عن فهم سطحي لمعنى الآية الكريمة {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولو الأمر منكم}. ولم يتساءل أحد كيف يكون حال وقيام أولو الأمر الواجب عليه طاعتهم، هذه الطاعة التي تأتى بعد طاعة الله ورسوله. ومن هذه الآية أيضاً، وفهم الناس فيها، واستغلال الحكام لها أخذ الحكم صبغة دينية، وأصبح الحاكم ملكاً ورائداً دينياً. وكتاب الدكتور علي عبد الرازق يلخص لنا ثلاث وجهات نظر عند الناس في نظام الحكم في الدولة الإسلامية.

الوجه الأول:

هو أن الخليفة له مقام الرسول، وظله الممدود على عباده. ومن كان ظل الله في أرضه وخليفة رسول الله فولايته عامة ومطلقة، كولاية الله تعالى وولاية رسوله الكريم، وله حق التصرف في رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم، وبيده وحده زمام الأمة، وتدبير ما جل من شئونها وما صغر. كل ولاية دونه مستمدة منه، وكل خطة دينية أو دنيوية فهي متفرعة عن منصبه لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا. وكل ولاية مستمدة من مقام الخلافة، فعمال الدولة الإسلامية من وزير أو

قاض أو وال أو محتسب أو غيرهم، كل أولئك وكلاء له ونواب عنه. وهو وحده صاحب الرأي في اختيارهم وعزلهم.

ويذكر خطبة للمنصور بمكة تؤيد ذلك بقوله " أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسهم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلا إن شاء أن يفتحني لأعطيكم فتحني، وان شاء أن يقفلني عليها أقفلني...الخ."

واختلفوا في التسمية هل هو خليفة الله كما أقرها المنصور وغيره، ونهى عنها أبو بكر لما دعا بها، وقال: " لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله ".

الوجه الثاني:

هو أن الخلافة أمر ينفرد به إجماع الأمة في اختيار الخليفة، وهذا واجبهم إن أهملوه انفرط عقد الأمة وذهب ريحها. وهذا الاتجاه يعتبر الخليفة مقيداً في سلطانه بحدود الشرع لا يتخطاها، وأنه مطالب حتما بأن يسلك بالمسلمين سبيلا واحدا من بين شتى السبل، هو سبيل واضحة من غير لبس، ومستقيمة من غير عوج، قد كشف الشرع الشريف عن مبادئها وغاياتها، وما كان للخليفة أن يفرّط فيها ولا أن يطغى، هي سبيل الدين الإسلامي التي أقام محمد (صلى الله عليه وسلم) يوضحها للناس حقبة من الدهر طويلة. هي السبيل التي حددها كتاب الله الكريم وسنة محمد (صلى الله عليه وسلم) وإجماع المسلمين.

وقد ذهب قوم منهم إلى أن الخليفة إذا جار أو فجر انعزل عن الخلافة.

ويقرر ابن خلدون أن الخلافة الخالصة كانت في الصدر الأول إلى آخر عهد سيدنا علي، ثم صار الأمر إلى الملك. وظهر التغير في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا. وكان سلوك الحكام (الخلفاء) هو قهر الشعوب والتقلب في الشهوات والملاذ. وهكذا كان الأمر إبان الحكم الأموي والعباسي.

الوجه الثالث:

يرى المؤلف أن الخلافة بعد الرسول ما هي إلا ملك لملك، لا علاقة لها بدين ولا بشرع، ويدلك على ذلك بحروب الردة بقوله: إن بعض الذين رفضوا أن يؤدوا إليه الزكاة، لم يكونوا بذلك أن يرفضوا الدين. وأن يكفروا به، ولكنهم رفضوا الإذعان لحكومة أبي بكر، كما رفض غيرهم من جلة المسلمين، فكان بديهيا أن يمنعوا الزكاة عنه، لأنهم لا يعترفون به، ولا يخضعون لسلطانه وحكومته.

(اختير أبو بكر هنا كأول نموذج لنظام الحكم في الإسلام). وأحد المرتدين هو مالك بن نويرة، أمر أبو بكر خالد ابن الوليد بضرب عنقه، رغم إعلان مالك لخالد بأنه لا يزال على الإسلام، ولكنه لا يؤدي الزكاة إلى صاحب خالد. والتناقض هنا جلي عندما لم يعتبر الإمام علي، وسعد بن عبادة مرتدين حين رفضوا بيعة أبي بكر، ولم يعاملوا معاملة المرتدين.

وقد أنكر عمر بن الخطاب عل أبي بكر قتاله المرتدين وقال: " كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم). أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله ".

واتخذ المؤلف خروج بعض الناس على أبي بكر حجة قوية لنفي الخلافة عنه بقوله: وهذا ما لم يحدث مع الرسول لأن العقيدة راسخة في قلوب وعقول الناس وهي الإيمان بالله ورسوله. فالإيمان بالرسول هو جزء لا يتجزأ من الدين. ويؤكد رؤيته بقوله أن الخلافة في الإسلام قامت عل القوة المادية المسلحة. وعروش الخلافة لم ترتفع إلا على رؤوس البشر. ولا حياة للخليفة إلا بما يأخذ من حياة البشر. وأن بريق الحكم دفع يزيد ابن معاوية إلى استباحة دم الحسين وتسلطه على عاصمة الخلافة الأولى ينتهك حرمتها. وهى مدينة رسول الله. واستحل عبد الملك بن مروان بيت الله الحرام. ووطأ حماه.

وبسبب الخلافة صار أبو العباس عبد الله بن محمد سفاحا. فضلا عن تناحر بني العباس على الحكم. والخلفاء سدوا سبيل علم السياسة على الناس حتى لا يكشفوا أنواع الحكم وخصائصه وأنظمته. ويثوروا على طغاة حكامهم.

وحين لجأ الكاتب إلى الدين لنفي الخلافة والإمامة لعدم ذكرهما في الكتاب ولا في السنة نجد الآيات كثيرة تؤكد على اصطفاء خلفائه وإرث الرسالة على الأرض {إني جاعل في الأرض خليفة}. {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم في دينهم }. {قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفنكم فى الأرض}. {يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق}. {وهو الذي

جعلكم خلائف الأرض}. {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح}. وهناك آيات ذكرت الإمامة منها {وكل شيء أحصيناه في إمام مبين}. {قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي}. {ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة }. {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً}. {يوم ندعو كل أناس بإمامهم}. {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا}. {ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين}.

والإمامة على المسلمين واستخلاف الرسول إنساناً من بعده نجدها في الأحاديث " من كنت مولاه فعلي مولاه " , " ...كتاب الله وعترتي ". " أنا مدينة العلم وعلي بابها " . " ما لكم وعلي، ما لكم وعلي، ما لكم وعلي، علي مني وأنا من علي وهو ولي كل مؤمن بعدي ".

كل هذه الآيات تؤيد الخلافة الدينية الحقة، ومصدرها غيبي لا دخل للناس فيه. وكذلك الإمامة فهي تخص ولا تعم، وهي توريث من السماء " الله أعلم حيث يجعل رسالته ".

وتمسك الحكام بعروشهم ولا يفارقونها إلا إذا أرغمهم الطامعون فيها يقول:

وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه " أي أن أي خليفة لا يتنازل عن عرشه إلا إذا اضطر إلى ذلك مرغماً بقوة أكبر منه تطمع فيما هو مسيطر عليه، وينعم به. ولكن نرى خلاف ذلك من أهل الحق حين سلم الإمام على الحكم لأبي بكر، وتنازل عنه الحسن لمعاوية.

ويقول باضطراب الحكم بعد الرسول لافتقاره للبساطة والفطرة

السليمة. وجاء الاضطراب من إدخال النظم السياسية والإدارية وأهواء الحكام. وأن الرسول لم يكن له ملك ولا حكومة. ولم يقم بتأسيس مملكة. ولكن له قدسية يختص بها عباد الله المرسلون. يؤيده الوحي وتؤازره الملائكة. وإنه صاحب رسالة ودين. وحكم النبوة لا حكم السلاطين. وولايته روحية منشأها إيمان القلب. وقد وحّد الرسول العرب في وحدة الإيمان والمذهب الديني. وقواعد الدين وآدابه. لا وحدة الدولة ومذاهب الحكم. بل ترك لهم شئون دنياهم. ونحن نتفق معه في هذا الرأي المستنير.

وانْتَقِلْ للحديث عن العرب بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى. يقول:

وعادت كل أمة تشعر بشخصيتها المتميزة. ووجودها المستقل عن غيره. وارتد أكثر العرب. ولم يكن لأحد أن يقوم من بعده ذلك المقام الديني. لأنه كان " خاتم النبيين ". وما كانت رسالة الله تعالى لتورث عن الرسول. ولا لتأخذ منه عطاء ولا توكيلا. ولم يسم أحد من بعده. ولم يشر عليه السلام طول حياته إلى شيء يسمى دولة إسلامية. أو دولة عربية. ونختلف معه. لأن عبارة "خاتم النبيين" استخدمها هنا بفهم سلفي بمعنى ختام. وهذا المعنى السلفي هو ما أخذ بدفة الفكر في العالم الإسلامي إلى وقف الرسالة على شخص الرسول وما نزل عليه من وحي أثناء فترة نبوته. ولم يفطن أحد من المسلمين – إلا من رحم – إلى المعنى الآخر لكلمة خاتم أي طابع كما فهمها عالم الجليزي في

تاريخ الأديان بمعنى طابع. أي أن هناك امتداد للرسالة والرسول.
وتعرّض بعد ذلك لقول الشيعة أن الرسول عيّن علياً عنه للخلافة على المسلمين من بعده. ووجد أن الحظ العلمي لهذا القول قليل لا ينبغي أن يلتفت إليه. وذكر للإمام ابن حزم الظاهرى نص على استخلاف أبي بكر بعده ولكنه يرى أن إجماع الرواة على اختلاف الصحابة في بيعة أبي بكر وامتناع أجلّة منهم عنها. وأن ما جاء بعد الرسول زعامة لا دينية.. زعامة مدنية أو سياسية.
وعن خلافة أبي بكر يقول: أقام أبو بكر دولة عربية قامت على أساس دعوة دينية أيدت سلطان العرب. ومكنت لهم في أقطار الأرض. فاستعمروها استعمارا. واستغلوا خيراتها استغلالاً. شأن الأمم القوية التي تتمكن من الفتح والاستعمار. ونقول تأييدا لرأي الدكتور علي عبد الرازق لأن أصحاب الرسول أرادوا لأنفسهم امتلاك حطام الدنيا. فقضوا بذلك على الملك الروحي للرسول وآله في أنفسهم.
وأخيراً يقول: وخيل لبعض الناس أن أبا بكر بمكانته وقربه يقوم مقاماً دينياً ينوب فيه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم).
من هنا اتخذ أبو بكر لقب "خليفة رسول الله " وإن لم يعرف على وجه التحديد من الذي اخترع لقب خليفة رسول الله. ولكن أبا بكر أجازه وارتضاه واستهل به كتبه إلى قبائل العرب المرتدة. وعهده إلى أمراء الجند. وكان الخروج عل أبي بكر هو خروج على الدين. وارتدادا عن الإسلام.
ورأيه فيما آل إليه اعتقاد الناس من حال الجمود الفكري

واستسلامهم لأهواء سلاطينهم فيقول: كان من مصلحة السلاطين أن يروّجوا ذلك الخطأ بين الناس حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم حتى أفهموا الناس أن طاعة الأئمة من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله، ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا السلطان خليفة الله في أرضه، وظله الممدود على عباده، ثم أصبحت الخلافة تلصق بالمباحث الدينية، وصارت جزءً من عقائد التوحيد، يدرسه المسلم مع صفات الله تعالى وصفات رسوله الكريم، وحرموا عليهم كل أنواع العلم التى تمس حظائر الخلافة، وانتهى ذلك بموت قوى البحث، ونشاط الفكر، فأصيبوا بشلل فى التفكير وفى كل ما يتصل بشأن الخلافة والخلفاء.

وظهور الخلافة جاء من جمهور الأمة بعد انتقال الرسول كما أسلفنا، فالناس بهذا خلطوا بين الخلافة الدينية وهي مسألة لمن تورّث الرسالة؟ أو من هو الإنسان الصالح حتى يحل محل الرسول، هذا الإجماع جاء من الناس، وتصوروا أنهم طالما أجمعوا على أمر ولم يخالف أحد منهم هذا الإجماع فيكون واجب التنفيذ والأخذ به.

هذا الإجماع باطل لأنهم تصوروا أن الرسول كان ملكاً رسولاً يرعى أمور الناس الدينية وشئونهم المادية، فأي إنسان يجدوه صالحاً ومستقيماً وعادلاً يستطيع أن يحل محل الرسول، ويكون خليفته، ولم يكتفوا بهذا بل أضفوا على من نصّبوهم خلفاء صفة الرشاد، فأصبح الحاكم خليفة راشداً، ولم يتذكروا قول

الرسـول وهو يخاطبهم بتعـجب " أليس فيكم من رجل رشـيد "
.. والإنسان الذي يكـلفه الله برسـالته لا دخل من قريب أو بعيد
للناس بهذا الاصـطفاء. وهذا الإنسـان المخـتار ليس كأي إنسـان " أنا
لسـت أبا أحد من رجالكم ولكني رسـول الله ".

" ما عرفني غير ربي". "أنا أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني".
{إن الله وملائكته يصـلون على النبي (يصـلونه) يا أيها الذين
آمنوا صـلوا عليه (أي أقيموا صلة به) وسـلموا تسـليما} فهو
حجر الزاوية بين الغيب والشـهادة. فالناس لم يتأهـلوا بعد لهذه
الصـلة. فالله وملائكته لم يصـلوا الناس لأنهم لم يحـيوا بعد.
ولم يقوموا في معنى " موتوا قبل أن تموتوا " حتى يعرفوا معنى
الحياة من الحي بينهم.

هذا الإنسـان المخـتار من الغيب له نور يمشي به في الناس وليس كلاماً.
فكلامه محـملاً بنور يسـري في الإنسان المسـتجيب الطالب. هذا
الإنسـان المصـطفى محل اسـتقبال فيوضـات السـماء. ولا يضـن
بها على الصـادقين في طلبـهم " الله المعطي وأنا القاسـم ".

وحينما قال " أنا بشـر مثلكم " فأضفى شـرفاً على البشـرية.
وفتح المجال لكل البشـر أن يكونوا مثله. أحياء عند ربهم يرزقـون.
فنحن لم نقدر مقام الرسـول. ولم نعرف كيف نسـير معه الى ما
يحب ويرضاه لنا " أحبوني يحـببكم الله لكم من الله ما لي".

"لا أسـألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى" والمتعاملون بأمور الدين
يتقاضون أعلى أجر. ولو أن القارئ يتذكر كيف أن معلمي السـيخ

ألغوا ما عرف وفرض من الناس في كل دين بنظام الكهنوت؛ حتى لا يستغل رجال الدين الناس. وأحس أحد معلمي السيخ بأنهم قد فسدوا.

والصلة برسول الله هي الأساس لكل إنسان حتى في مسألة الاستغفار والمغفرة. لا يغفر لإنسان إلا إذا استغفر له الرسول: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما}. " أعلمني الله في موقفي هذا ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ". وأن من كانوا حول الرسول نظروا إليه على أنه شخص عادي يتلقى وحياً. ولا قدسية له. ونسوا أو تناسوا الآيات {إن هو إلا وحي يوحى}. {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين}.

والمعنى الذي استخلصته من كتاب السيد الدكتور علي عبد الرازق هو أن ساداتنا السادة علي بن أبي طالب وابنه الحسن والحسين ومن قتلوا من أهل البيت ومن آلوا إلى البيت يمثلون جانب الحق والرحمة. قتلتهم الفئة الباغية ، الظالمة لنفسها التي تمثل الباطل. وخلت الساحة للباطل يسري في الناس. يزيدهم ضلالاً وظلاماً وبعداً عن معنى الحق في داخلهم. ومن ثم لم يجد ساداتنا لهم ثغرة ينفذون منها لعقول وقلوب الناس. وبهذا قام الناس بقتل معنى الحق فيهم. وهذا ما حدث لساداتنا في الظاهر على أيدي الناس.

وما صار إليه حال المسلمين الآن هو نتيجة عدم الإيمان بآل البيت. وضعف الإيمان بالرسول. وعدم الفهم في الله. هو الذي

أعمى بصائرهم عما في الكتاب وعما في السنة إلى أهواء نفوسهم.

وذكري لهذا البحث هو لأبيّن مدى انحراف الناس بفكرهم منساقين وراء روح الإجماع على شيء، ربما يكون فيه هلاكهم. فهم يتبعون سياسة القطيع دون تروي ودون تفكر. فلو أنهم أدركوا أن أوامر الدين ما هي إلا كشفاً لقوانين الوجود من حولنا في الطبيعة وفي سلوك الإنسان، ومطالبين أن يخضعوا كل أمر، أياً كان .. دين أو دنيا لبحثهم وتجربتهم حتى تكون الإفادة من هذا الأمر هو الخير كل الخير. إنه التفكير العلمي المنظم، القائم على التحليل والتقصي والتساؤل والفرض والاحتمالات؛ لأن معظم أوامر الدين مطلقة وعامة، ولها وجوه كثيرة وما ينفع طبيعة فرد لا يصلح لآخر، وأن الدين لواقع، واقع الحياة المعاشة لكل فرد. وطالما الدين موجه للإنسان فمن حقه أن يرى وجه الإفادة القصوى من أي شيء يعرض عليه أو يتعرض له، وقانون الأرض مبني على المكسب، ماديا كان أو معنويا. فلماذا نوكل أمر حياتنا الدينية لأناس يفكرون ويفسرون ويفرضون على الناس أنانيتهم. لماذا يلغي الإنسان فكره وشخصه لشخص أو فئة من الناس أو أقدمين صالحين كانوا أم طالحين.

لقد تقدم الغرب تقدماً مذهلاً بسبب التحرر الفكري واحترام فكر الآخر والإنصات له بكل تقدير، ولا يقاطع إنساناً يملك ناصية الحديث حتى لو كان المستمع أعلم منه. إنهم يتناولون كل أمور حياتهم بالبحث المستفيض، وإذا توصلوا لنظرية أو نتيجة ما وضعوا لها

احتمالات التكذيب والنقض لأنهم يؤمنون بالتطور الدائم، والتوقف هو الموت بعينه. وهذا لأن كل شيء لانهائي مثل الكون الذي نعيش فيه لا يتوقف اتساعه.

نسأل الله أن يرفع الغمة عن عقولنا ونفوسنا وقلوبنا، ونسأله أن ينير عقولنا ويحي قلوبنا ويزكي نفوسنا ويطهر أرواحنا ويصلح أحوالنا برحمته وكرمه وجوده ومنته.


Bibliotheca Alexandrina
0669975